مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ هُودٍ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة هود

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة هود

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ
فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

ابتدأت سورة هود بِمْثِل ما ابتدأت به سورة يونس، وبعض سور القرآن الكريم من الحروف المقطعة،

قال تعالى ﴿ الٓر ﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر هذا البناء اللفظي بباله، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في معنى ﴿ الٓر ﴾ أي: أنا الله أرى. وقال آخرون: هي حروف من اسم الله الذي هو (الرحمن) فقوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ و﴿ حمٓ ﴾ و﴿ نٓ ﴾ حروف **(الرحمن)** مقطعة.[1]

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[2]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٠٣-١٠٤)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلَّا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُشيد سبحانه وتعالى بكتابه القرآن الكريم، ويزكيه بما هو عليه من الحقيقة التشريعية، والحقيقة البيانية ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن هذا الكتاب الذي هو القرآن الكريم قد ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: أحكم الله تعالى آياته من الخلل والباطل والتناقض، ونُظِمَت نظماً محكماً، لا يلحقها نقص ولا تناقض ولا خلل، وأن مضمون أحكامه عدل جميعها، لا جور ولا ظلم فيها، بل هي كمال العدل وأحسنه. وأن أحكامه واضحة جلية، قد أوضح فيها جَلَّ جلاله الحلال والحرام ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح وفَصَّل فيه الأخلاق والإحسان. وكذلك فصلها سبحانه وتعالى بالأمر والنهي، وفَصَّل الأحكام التشريعية من الحلال والحرام، والترغيب والترهيب من الوعد والوعيد والثواب والعقاب، والقصص والمواعظ، ثم أكد عظمة القرآن الكريم ببيان مصدره، بأنه ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فهو من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: مُحْكِمٍ للأمور، حكيم بتدبير الأشياء وتقديرها، والمحكم للأمور لا يمكن أن يصدر منه شيء إلا وقد أحكمه تمام الإحكام، وأيضاً من لدن ﴿خَبِيرٍ﴾ أي: عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلن يكون الكتاب الذي أنزله عَزَّ وجل إلا مُحكم من كل خلل ونقص وتناقض، فنفى عنه كل نقص بإثبات المحامد والمحاسن له ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ

---

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ثم بين عَزَّ وجل دقة محتواه، وعمق وجلالة فوائده بتفصيله ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ وهذا الإحكام والتفصيل صادر من الرحمن الرحيم المتصف بأنه ﴿ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ وهذا عمق عظيم في الوصف والتزكية للقرآن العظيم.

وهذا الوصف لكتاب الله تعالى يستدعي القول: فَلِمَا أنكره من أنكره؟ وما المانع من الايمان به؟ وهو حجة بالغة، وقد أُتقن مضمونه إتقاناً لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له. والإحكام فيه شامل له كله، فهو شامل لبناء آياته كلها، وشامل لفصاحته وبلاغته، وشامل لتكامله، وكذلك شامل لإتقان تفصيل آياته، المبينة والموضحة لكل أمر، ولكل نهي. ولذلك جاء بعده ما يستثير ويستدعي وجوب العمل به، ولتنتفي علل وأسباب إحجام من أحجم عنه ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ أي: أُحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: أي أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله(١) ثم يحدد مهمة النبي صلى الله عليه وسلم لهم ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ فيأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه ليس له سلطان عليهم، وإنما يحمل من الله تعالى أمرين لهم ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ فإنني رسول لكم من الله تعالى، فحدد الباعث له على دعوتهم بأنه رسول من الله تعالى، ثم ذكر مهمته في أمرين: الأولى: لأنذركم ﴿ نَذِيرٞ ﴾ والنذير هو الذي يحمل خبراً فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور(٢) فأحذركم من الكفر والشرك والمعصية، وما يتبعها من عذاب الله تعالى وسطوته وأليم عقابه، والثانية: ﴿ وَبَشِيرٞ ﴾ أبشركم بالجنة والرضوان لمن أطاع الله عَزَّ وجل.

مما يفيد أهمية تحديد المسؤولية، وتحديد السلطة، وأن منهج الدعوة إلى الله تعالى قائم على تحديد مسؤولية وسلطة الداعية إلى الله تعالى، بأن يُحَذِّر الناس من غضب الله تعالى وعقابه، ببيان حدوده وشرعه فيما شرع وأمر ونهى، وأن يبشر المطيع بالثواب والجنة والرضوان. وأنه ليس مكلف بإلزام الناس، فإنه لا يسعه ذلك، وليس مأمور به. وفي هذا بيان لأهمية الموازنة بين القدرة، وبين التكليف. فقد كلف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما هو من قدرته واستطاعته.

ثم يرشدهم تبارك وتعالى إلى ما يجب عليهم تجاه معاصيهم، بأن يستغفروا ويتوبوا إلى الله تعالى ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ أي: آمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة إلى الله عَزَّ وجل منها،

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٤/٩)

(٢) الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٤٨٧)

وكذلك وفيما تستقبلونه من حياتكم، وأن تستمروا على ذلك. ويعني الاستغفار: رجاء محو ما سلف من الذنوب، وعدم المؤاخذة عليها. وأما التوبة فهي: إقلاع عن الذنب، وعزيمة على عدم العودة إليه. وفي الجمع بينهما ما يدل على دقة مدلولها ومقصدهما. وأما التوبة فهي: إقلاع عن الذنب، وعزيمة على عدم العودة إليه. وفي الجمع بينهما ما يدل على دقة مدلولها ومقصدهما.

ويلزم من وقوع التوبة منهم ترك الشرك، وأن يؤمنوا به عَزَّ وجل، ويوحدوه، ويعبدوه، ويطيعوه فيما أمر، وينتهوا عما نهى عنه عَزَّ وجل، ويعزموا على الاستمرار على ترك ما تابوا منه. ثم يبين تبارك وتعالى ما يترتب من الجزاء والثواب حال استغفارهم وتوبتهم ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتفضل عليكم بالرزق والسعة[1] وفي وعد الله تعالى لهم ما يستثير اليقين بطيب الحياة، وما تستقبلون من أمركم، لأن الامتاع يحمل دلالة الانتفاع، وكون التمكين من الانتفاع من الله تعالى ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾ فإنه يدل على كماله، زمنا ونوعاً وتعاملاً، واغتباطاً، وأكده وبينه سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ فوصفه بالحسن، الخالي مما يكدره. ثم بين تبارك وتعالى أن هذا المتاع مهما طال ومهما كان فيه من الحسن فإنه إلى حين ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ ليدل ذلك على أن المقصود به هو متاع الحياة الدنيا، لأنه محدود الزمن، فينقطع بالموت، وأما متاع الآخرة فهو لا يزول ولا ينتهي ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ ويؤت كل ذي عمل صالح جزاء ذلك العمل الصالح، وهذا من عدله تبارك وتعالى، وذلك لتفاوت الناس في الأعمال الصالحة، فمنهم سابق بالخيرات، ومنهم مقتصد. وفي هذا استحثاث للمؤمنين نحو الصالحات، وأن كل واحد له ثواب أعماله، فاجتهدوا فيها، وتسابقوا في الخير. وتكرر الفضل مرتين، فالفضل الأول: ﴿ذِي فَضۡلٖ﴾ العمل الصالح الذي مصدره العبد، والفضل الثاني: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ هو الذي من الله تعالى لعباده.

ثم يبين الله تعالى حال اختيار الإنسان الكفر على الاستجابة له سبحانه وتعالى ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ فقل لهم أيها النبي: فإن أعرضتم عن الاستجابة لله تعالى بتوحيده، وعبادته، والإخلاص له، والاستغفار والتوبة ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ فأخاف عليكم عذاب يوم القيامة، الموصوف باليوم الكبير، لما فيه من الأهوال العظيمة. وفي قوله ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٣/٤)

﴿كَبِيرٍ﴾ دليل على رحمة الله تعالى بهم بهذا الإنذار، وإظهار حرصه صلى الله عليه وسلم على توبتهم وعودتهم إلى الله تعالى بطاعته ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وكذلك في النص الكريم رحمة الله تعالى، إذ يوجه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأسلوب الذي يستثير عواطفهم نحو الامتثال لله تعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى خوف رسوله صلى اله عليه وسلم عليهم من عذاب يوم القيامة بتذكيرهم بالرجوع إليه عزَّ وجل ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فإلى الله تعالى الرجوع بالموت، ثم البعث والنشور والحساب والجزاء، ثم يأتي المزيد من الوعظ بالترهيب لهم عن عظيم قدرته سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فإن ربكم قادر على كل شيء، بأن يأخذكم أخذ عزيز مقتدر على تماديكم في الكفر. ومن غزارة قوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أنه لم يُورد قدرته سبحانه وتعالى على وجه التخصيص لهم، بل وردت شاملة، لتشملهم وتشمل كل شيء غيرهم. فإنها قدرة عظيمة قد أحاطت بكل شيء، فهي موعظة جليلة القدر، كثيرة النفع وعظيمة الأثر في القلوب.

ثم يكشف الله تعالى حال هؤلاء المشركين، وذلك بإعلام وإخبار نبيه صلى الله عليه وسلم بماهم عليه أثناء وحين تبليغك لهم بما جاء من عند الله تبارك وتعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ فبدأت الآية الكريمة وتصدرت بحرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ لما فيه من الإيقاظ والتنبيه لما بعده، وشد الانتباه للاهتمام إليه. فإن هؤلاء يصدون عن فهمه واستيعابه، إعراضاً عما تدعوهم إليه من الحق، وأفاد قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ الكشف عن خفاياهم، وما في بواطن قلوبهم من الشك والامتراء في الحق، بوصف دقيق لما هم عليه من الامتراء والصدود، لأن ثني الصدر يفيد الانحراف عن الشيء، وعدم قبوله، ولأن مَنْ قَبِلَ شيئاً استقبله بصدره، وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى: أنه قيل في معناه: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر، والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر، كما كان دأب المنافقين(١) وهذه دقة عميقة في وصف حالهم، والكشف عن علة إظهارهم عكس ما يبطنون، بأن إدبارهم يمثل ويصور حقيقة صدورهم، وما تحمله من تجافي عن ما جاءهم من الحق، وعدم قبوله.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨١/٢)

قال مجاهد رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ ﴾ أي: ليستخفوا من الله تعالى[١] أي: ليستتروا من الله عَزَّ وجل، فيتخفوا عنه. ففي اعتقادهم أنه يمكن لهم أن يتخفوا ويتواروا عن الله تعالى، ويستتروا منه عَزَّ وجل. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ليتواروا عن محمد أو عن الله تعالى[٢] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: ليستخفوا من الله تعالى، فلا يُطْلِع رسوله والمؤمنين ازورارهم[٣] أي: صدورهم. ولا يمنع أن يكون المعنى هو: استخفاؤهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، بدليل أن الله تعالى أوضح بعد بيان ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ ﴾ ذكر السبب ﴿ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ ﴾ ثم أظهر بعد ذلك تبارك وتعالى كمال علمه، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ ﴾ فكشف عن جهلهم بصفات الله تعالى، وعظيم علمه ودقته، فإنه سبحانه وتعالى يعلم ما يخفون وما يسترونه، وما يُسِرُّون به، فإن أخفوا مرادهم عن رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يخفى عليه جَلَّ جلاله، وهو يعلم ما يكون منهم حين يتغشون ثيابهم، فيلبسونها، ويتغطون بها، فيغطون رؤوسهم وأجسامهم بثيابهم، فما أخفوه عن أنفسهم وعن غيرهم فإنه لا يخفى على الله تعالى.

وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك، بما يبين ويكشف دلالة الاستغشاء: قال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بثوبه على وجهه، وثنى ظهره. وعن قتادة: كانوا يحنون صدورهم لكي لا يسمعوا كتاب الله تعالى، وقال آخرون: إنما هذا إخبار من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء، ويُبدون له المحبة والمودة، أنهم معه وعلى دينه[٤] وفي هذا بيان ووصف لحالهم فيما يكون منهم من طأطأة الصدور وثنيها، وبما يفيد أنهم يضمرون العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم من خلال إخفاء عداوتهم بسترها والتواري بها. ومن غزارة دلالة الآية الكريمة أن شمل النص الكريم فئتين: الأولى: فئة المشركين في تعاملهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، والثانية: فئة المنافقين. بل من عظيم بيان الآية الكريمة أنها شملت ما كان على سبيل الحال، وكذلك المستقبل، فيما سيكون من المنافقين، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، أو إظهار الموالاة وإبطان ما يمكرون به للمؤمنين، فهذه حالهم إلى أن تقوم الساعة، مما يوجب الحذر منهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٨/١٢)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦/٩)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٣٧٤/٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٦/١٢-٣١٩)

ثم يبين الله تعالى دقة علمه بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإن الله تعالى يعلم ما تكنه وتحويه الصدور مما لا تبوح به لغيرها، فيعلم من الإنسان نيته، ومدار تفكيره، ومقصده، وما هو عازم عليه قبل أن يمضيه أو يتفوه به. فإن مَنْ كان هذا علمه فإنه لن يخفى عليه شيء من أمر هذا الإنسان وغيره من المخلوقات. مما يبين جلالة وعمق علمه سبحانه وتعالى، وكذلك فيها من دقة البيان: التكامل بين صفة كمال العلم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وصفة كمال القدرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي إدراك الإنسان لهذه الحقيقة ما يُرَبِّي فيه الحذر، وذلك بالاستقامة في أمره، فيعبد الله تعالى وكأنه يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم في تعريف الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] ومن عمق غزارة البيان أن صيغة ﴿عَلِيمٌۢ﴾ من صيغ المبالغة، لتفيد دقة العلم، وكمال الإحاطة، حتى بما يلج في الصدور، مما يخفيه الإنسان عن غيره، ولم ينطق به، فهو مكنون في صدره، فإنه سبحانه وتعالى عليم به.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

يخبر الله تعالى عن دقائق من علمه وتدبيره لشأن العباد، وشأن مخلوقاته جميعاً ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فبدأ الله تعالى كلامه بالنفي الذي يفيد الحصر المؤكد من أنه ليس من دابة إلا عليه رزقها سبحانه وتعالى، فنفى أن تكون هناك دابة واحدة ليس على الله تعالى رزقها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وجملة ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ حصر لرزقها بأنه عليه سبحانه وتعالى، أي: هو الذي يتولى رزقها عَزَّ في علاه. فإن على الله رزقها وليس على غيره، فضلاً منه ونعمة، لا وجوباً عليه، بما يفيد أن الله تعالى هو الرزاق، وهو المعطي والمهيء لأسباب الرزق وتحصيله، بل ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: المكان الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً، فإنه يعلمه

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٣) برقم (٥٠)

سبحانه وتعالى عن كل دابة ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: الموضع الذي يُودعها فيه، إما بموتها فيه، أو دفنها، ذكره الطبري رحمه الله تعالى[١] فمن هذه صفاته كيف تستترون منه، وتريدون أن تتخَفّوا عنه، وتُخْفُوا باطلكم ونواياكم وفسادكم. ففي ذلك توجيه وتعليم مبني على الحقائق التي لا مراء فيها.

وقد عمم الله تعالى شمول رزقه لكل ما يدب في الأرض، ليشمل الإنسان والحيوان والحشرات والحيتان في جوف البحر، ومن غزارة الدقة البيانية أن الله تبارك وتعالى لم يقل: ما من دابة في البر، بل ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لتجمع ما في البر والبحر، لأن دلالة الأرض تجمع برها وبحرها، ولتفيد كذلك كل ما نشاهده وما نعرفه وما لا نشاهده ولا نعرفه مما يدب في الأرض، أو يسبح ويغور في البحار. وهذا من الدقة المتناهية في الإعجاز البياني، والتي تفيد أن كل كلمة في القرآن الكريم لا تقوم مقامها غيرها. وكذلك من دقيق الفوائد: أنه عَزَّ وجل عالم بأحوال جميع الدواب، وأرزاقها، وهو المدبر لها واحدة، واحدة، لا يشغله شيء عن شيء.

ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بحصر كل ذلك في كتاب، بأنه مكتوب عنده عَزَّ وجل في كتاب ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فإن جميع ما يدب على الأرض موجود بتفاصيله في هذا الكتاب، سواء ما يتعلق بأعدادها، أو مقدار أقواتها، أو قدر قرارها في مستقرها، ومدة مكوثها في مستودعها، وغير ذلك من أمور مخلوقاته، كل ذلك في كتاب عند الله تعالى، مُثبت مكتوب، وكلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ تفيد دقة تفاصيله، فإنه يُبَيِّن لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويُوجدها[٢] أي ذلك عند الله في اللوح المحفوظ، هذا قول المفسرين[٣] وهذا يُعَلِّم الإنسان عامة، والمؤمن خاصة، أن الله تعالى عالم من كل أحد بما سيكون عليه حاله، فأثبته في كتاب عنده، ومبين لتفاصيل حياته، مما يغرس في قلبه الطمأنينة، بأنه لن يحصل له إلا ما هو مكتوب له وعليه، وأن عليه لزوم الاستقامة، وسؤال الله تعالى العافية، وأن لا يجزع مما يصيبه، ولا يفرح بما يأتيه.

ويتدرج بيان الله تعالى لعباده من ارزاقه للدواب والعلم بمستقرها ومستودعها إلى ما هو أعظم وأكبر من ذلك، فيخبر الله تعالى عن قدرته على كل شيء، ليعتبر العباد بقدرته عَزَّ وجل، وإتقانه لما صنع، وكمال تدبيره، ودقة علمه سبحانه وتعالى. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٥/١٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٨/١٢) منقول بمعناه

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٦/٤)

أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فبدأ سبحانه وتعالى الآية الكريمة ببيان أنه هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام من غير شيء، فإنه لا يعجزه بعثكم بعد أن يميتكم، وهو قادر على خلقها في أقل من ذلك، ولكن ليعلم العباد من الملائكة والإنس والجن، أنه حليم حتى في إنشاء وصنع خلقه سبحانه وتعالى.. ثم ذكر جَلَّ جلاله عرشه ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ وكان عرشه عَزَّ وجل على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض وما فيهن[١] وفي هذا تعليم وإخبار بكيف بدأ خلقه تبارك وتعالى، حتى يعرف العباد عظمة مخلوقات الله تعالى، التي تدل على عظيم قدرته عَزَّ وجل، وجلالة قدره وعظيم سلطانه، وعلمه ورفعته ومنزلته على خلقه جَلَّ شأنه وعَزَّ تدبيره.

وهذا الإخبار والإعلام من الله تعالى لهدف وغاية ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ليختبركم أيها الناس، حتى يظهر من يصدق، ويؤمن ويستجيب، ويعتبر ويطيع، ومن يكذب، ويطعن، ويكابر، وينافق، ويعصي، فيظهر فيهم الأحسن عملاً في تصديقه وطاعته. والعمل الحسن هو الذي يكون خالصاً لله تعالى، ووفق منهج رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يستوجب على العباد التأمل والتفكر والاستدلال على كمال قدرته سبحانه وتعالى، وعلى حقيقة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، فإن من يملك هذه القدرة على الخلق والتدبير فإنه لا يعجزه بعث من يموت، ثم الحساب والجزاء، فلا موقع لامتناعها، ولا لصعوبتها، فكل آيات الله تعالى تخبر بكمال قدرة العزيز الرحيم. ومن غزارة البيان ورحابته أن استوفت جملة ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ جميع أنواع العمل من الطاعات، وبما يحفز ويدفع المؤمن للتسابق في تحصيل الأحسن عملاً، ارضاء للرب تبارك وتعالى، فلا يكتفي بأداء الواجبات، بل يتلمس الإحسان في كل شيء.

وهي قاعدة للمؤمن عند أدائه لمسؤولياته، بأن يستحضر قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وقاعدة عندما تتقهقر به نفسه نحو الإجحاف، فيناديها بقوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وهي قاعدة عندما تسول للإنسان نفسه بالتقصير، فيستقوي بدلالة قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وهي قاعدة في ابتغاء رفعة المنزلة عند الله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٣٣٠)

عَمَلًا ﴾ وهي قاعدة في الاستجابة لنتيجة اختبار الله تعالى للعبد ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وهي قاعد في الوعظ لكل من يتهاون في عموم الواجبات. فإن رأى مقصراً، أو متهاوناً في الأداء وعظه بقوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فهي قاعدة ثرية في كل باب يدفع للخير ويمنع عن التقصير، أو الدخول في دوائر الشر.

ثم يخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما يردون به أهل الكفر من الردود الشنيعة ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإنك أيها النبي إذا خاطبتهم بالبعث بعد الموت ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ فإنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب والجزاء، فيستلزم ذلك منكم تحقيق العمل الصالح، لأن الله تعالى يختبر عباده، حتى يظهر ويتبين أيهم أحسن عملا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وأن هذا الجزاء على العمل يكون يوم القيامة عند البعث من الموت، فإن ردَّهُم لك أيها النبي هو الاتهام بالسحر ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فهذا الذي تقوله يا محمد باطل، كخداع السحر الباطل الذي ليس له حقيقة. فيكذبون بالبعث بعد الموت، وبالتالي يكرون ما يترتب عليه من الحساب والجزاء. ومن جرأتهم أنهم أمعنوا في التكذيب إلى درجة تأكيد السحر بأنه واضح مبين ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فنفوا الشك عن كونه سحر، ومؤكدين بيانه واستيضاحه لهم بأنه سحر. بل ورد السياق بصيغة الحصر، بأنه ليس غير السحر. ليفيد تأكيد زعمهم.

ومن جهلهم بحلم الله تعالى أنهم يتساءلون عن العذاب الذي ينذرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فيخبر الله تعالى عن حلمه، وعدم استعجاله لعباده بالعذاب ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أراد به الوقت المقصود لإيقاع العذاب(١) فيؤخر الله تعالى عنهم العذاب إلى الأجل المعلوم. مما يبين ويفيد أن إيقاع العقوبة

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٣/٢)

والعذاب بالعبد أو بالعباد لا يكون إلا وفق تقدير الله تعالى، وأن تقدير الله تعالى مبني على حلمه وحكمته عَزَّ وجل، فلو يعجل للناس ما يستحقون من العذاب لما بقي منهم أحد.

ثم يخبر الله تعالى عن تساؤلهم عن العذاب الذي يوعدون به ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ بما يفيد تعجبهم من تأخير العذاب، وهو استفهام تهكم واستهزاء وتكذيب، إذ يظنون أن تأخيره عجز. وكذلك أفاد مجمل النص الكريم تعجب الله تعالى من قولهم هذا ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ثم يخبر الله تعالى جواباً على تساؤلهم عن تأخر العذاب ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فافتتح الله تبارك وتعالى الجواب على تساؤلهم بحرف التنبيه ﴿أَلَا﴾ للفت الانتباه نحو الاهتمام بمضمونه ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فإنه حين يقع بهم العذاب، فلن يستطيع أحدٌ أو أي شيء أن يدفعه ويصرفه عنهم، ولن يحول عنهم بأي وسيلة كانت، ليفيد التأكيد بأنه حال وقوع العذاب فلن ينصرف عنهم إلا وقد أخذهم بشدته ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط بهم العذاب الذي يتهكمون ويستهزئون به، ويستفهمون عن عدم وقوعه استكباراً واستهزاء.

ومن بديع ودقة البيان أن وصف الله تعالى علة وسبب وقوع العذاب، بأنه التمادي في التكذيب إلى درجة الاستهزاء ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بسبب استهزائهم به عندما قالوا ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ليؤكد أن قولهم ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ كان استهزاء وتهكماً. وهذا إعجاز بياني عظيم. ويتبين من ذلك أن الْمُصِر على الكفر عناداً يجادل عن قوله عناداً، ويوسم الحق بالباطل، ويوصف الباطل بالحق.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يخبر الله تعالى بحقيقة هذا الإنسان عندما تصيبه نعمة من المنعم سبحانه وتعالى، ثم ينتزعها منه تبارك وتعالى. وكذلك عندما تصيبه ضراء، ثم يكشفها الله تعالى عنه بنعمة ضافية كريمة، فإن حال هذا الإنسان عموماً على وجهين سيئين، فالحالة الأولى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ

﴿كَفُورٌ﴾ فإن جنس هذا الإنسان، إذا أدركته رحمة من الله تعالى بما يُنعم به عليه سبحانه وتعالى من أنواع رحمته: كالصحة، والعافية، والمال، والذرية، والأمن، وغيرها من النعم، حتى يستشعر النعمة بكامل حواسه، ثم ينزعها الله تعالى منه، فإنه يحصل له أمران: الأول: هو اليأس ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ فيقنط من أن يعود إليه شيء من تلك النعم، فيجزع ويهلع ويتحسر على ما كان فيه من رحمة الله تعالى التي قد ذهبت وتولت عنه. والأمر الثاني: الجحود ﴿كَفُورٌ﴾ أي: فينكر ما كان فيه من النعمة، بجحودها، ونسيانه لها، وكأنه لم يكن في نعمة من قبل. وفي هذا كشف للطبيعة البشرية حال ما ينغمس هذا الإنسان في نعمة الله تعالى، فلا يحصل منه ما يستدعي بقاؤها من الشكر والعمل الصالح فيها، ثم إذا نزع الله تبارك وتعالى منه تلك النعمة، أصابه اليأس والجحود وافتعال النسيان لتلك النعم. وفي هذا التحليل ما يستثير الإنسان نحو علاج ذلك وتفاديه، وتجاوزه بالطريقة الصحيحة، والتي يأتي بيانها بعد بيان الصورة الثانية لهذا الإنسان.

وفي هذا البيان من الله تعالى ما يستثير الوقوف عند دلالات هذا النص المبارك، فأولها قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ والتي بينت وأوضحت أن التدبير والتقدير له عَزَّ وجل، فقد نسب ذلك له عَزَّ وجل ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾ وأكدها بقوله تعالى ﴿مِنَّا﴾ فهو الذي أغدق على هذا الإنسان برحمته وحكمته وقدرته، بل وجعله يتذوق ما أعطاه، بما يكشف ويبين حجم النعمة في تعاظمها وكثرتها، وسعة بسطها، حتى كان استشعاره لها هو استشعار المتذوق لها، لأن أدق حالات الاستشعار هي حاسة الذوق، فجاء الوصف لها بأدق الحواس. ثم سمى الله تعالى نعمته رحمة ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ والرحمة تستوعب وتستجمع جميع أنواع الخير، ظاهره وباطنه، ما يعلمه الإنسان وما لا يعلمه. وكذلك نسب الرحمة المعطاة للعبد أنها له ومنه عَزَّ وجل، ليتأكد أن الذي أعطى هذا الإنسان هو الله تعالى، وأنه أعطاه من ملكه، وسماها رحمة، لأنها إحسان وإنعام وإفضال على العبد من غير مقابل لها.

ثم أخبر الله تعالى بكيفية أخذه لهذه النعمة واستئصالها من العبد ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ فالذي نزعها هو الذي أعطاها سبحانه وتعالى، ووصف الأخذ لها بالنزع، ليفيد الأخذ من غير إرادة الإنسان، فَتُنْزَع عنوة منه، ليبين ضعفه أمام النعمة التي يتنعم فيها، وعجزه عن إبقائها أو الدفاع عنها بقوته وقدرته، ليتأكد ضعف هذا الإنسان أمام منع زوال النعمة عنوة من أمامه، وكذلك إظهار وبيان لضعف هذا الإنسان أمام قوة الله تعالى وقدرته وحكمته عَزَّ وجل. ثم وصف الله تعالى حال هذا الإنسان عند حدوث النزع للنعمة من بين يديه ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ فهذه صفتان تدلان على الضعف النفسي، والضعف الإرادي، مع الانكسار وعدم مقاومة ما يصيبه من المصائب، فتنهار نفسه وعزيمته وإرادته عن معاودة النهوض والبحث، وكذلك

تكشف عن عدم قدرته على تحمل متغيرات الحياة، فإن الصفة الأولى التي تعتريه هي اليأس ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ فيفقد الأمل من أن يعود عليه ما انتزعه الله تعالى منه، مما يترتب على هذا اليأس، النكوص، والحسرة والحزن على ما فاته، مع خمول الإرادة نحو البدء والترقب لعودة الخير، وعدم الجدية في السعي نحو تحصيل ما ذهب عنه. والصفة الثانية: ﴿كَفُورٌ﴾ وهو الجحود، فلا يشكر ما كان فيه من نعمة، بل يسترها بيأسه وقنوطه. مما يفيد أن هذه الطبيعة البشرية تحتاج إلى علاج وإصلاح، وذلك بمعرفة منهج التحصن من أن يتلبس بها، والتي بينها الله تعالى بعد بيانه عَزَّ وجل للصورة والحالة الثانية من مسلك هذا الإنسان.

وأما الحالة الثانية: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فإن جنس هذا الإنسان إذا ألبسه الله تعالى نعماء من السلامة والصحة، والمال والولد، ورغد العيش، حتى ظهرت على صاحبها ظهوراً يستشعر به بعد أن كان في ضر وفقر وعوز، وضيق من الحال والعيش أصابه الفرح والتعالي على الغير ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: لشديد الفرح، والفخر بما هو فيه من نعمة، فيتباهى على غيره بما أنعم الله تعالى به عليه، وكأنه هو الذي أصابها بقدرته الخاصة.

وهذه الحالة والصورة للإنسان تستدعي الوقوف على عمق دلالاتها، وأول ذلك قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فقد نسب الله تعالى التدبير والتقدير له عَزَّ وجل ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾ فالذي أذاق العبد مذاق وطعم هذه النعمة هو الله تعالى، بعد أن كان في حاجة وافتقار إليها ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ووردت الضراء عامة، لتستوعب جميع مفردات أنواع الضر، فأي كان نوع الضر من العوز والفقر، أو المرض، أو الهزيمة، أو القلة، أو غير ذلك. كما تم الوصف لهذا الضر الذي لحق بهذا الإنسان بكلمة المس ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ لأن المس هو إصابة الأذى عموماً، ومشاطرته وملاصقته للإنسان، وهي معبرة عن معايشة هذا الضر للإنسان، فيشعر به، ويتوجع منه. ومن دقة البيان وعمق ألفاظه وبلاغة عطائه أن وصف الله تعالى أثر النعمة التي رزقها العبد بالتذوق ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ﴾ لكثرتها، بينما سمى أثر الضراء بالمس ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ليتبين أن حجم النعماء كان عظيماً، وأن حجم الضراء لم يكن مهلكاً، فهو أَحَسَّ وشعر به وعايشه، ولكن لم يصل إلى درجة التذوق له، فسبحان الذي أعجز بدقة ببيانه عباده، ليتأكد لكل إنسان أن هذا القرآن الكريم كتاب إعجاز من كل وجه.

ثم أوضح الله تعالى أثر هذا التحول على هذا الإنسان ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾ فأول محطات تفاعل هذا الإنسان مع ما أصابه من خير، هو قوله: إن السيئات قد ولَّت وأدبرت عني، وهنا لم يحمد الله تعالى ويشكره على ما أذهبه عنه من الضراء التي مسته، وأن أبدله من بعد ذلك بالنعماء التي تذوقها من كثرتها وسعتها، حتى خالطت مشاعره وحواسه، فتلذذ بها. وكذلك من أخطاء هذا الإنسان أن نسب زوال ما أصابه للسيئات ذاتها ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ بأنها هي التي ذهبت عنه، ولم ينسب ذهابها إلى رحمة الله تعالى وقدرته. ومن أخطائه كذلك ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾ فجمع بين الفرح والسرور بما أصابه، وأضاف إليه الفخر، الذي تجاوز به حد الفرح إلى التباهي والتفاخر والمراء على غيره، وكأنه هو الذي حَصَّل تلك النعمة بقوته وإرادته، وقدم الفرح على الفخر، لأن الفرح سبب قد يقود إلى الفخر.

وهذه الصورة تمثل صورة أهل الضلال والكفر من الناس، ومنهم الذين ذكرهم الله تعالى قبل هذه الآيات من الإصرار على الكفر، والتكذيب بالعذاب، بل والاستهزاء بحصوله، وقد يحصل منها شيء في سلوك بعض ضعاف الإيمان، مما يوجب الحذر والتأدب مع عطاء الله تعالى وأقداره.

ثم ذكر الله تعالى صفات الذين استثناهم الله تعالى من هاتين الصورتين الذميمتين، التي تتمثل في الإنسان عامة، فقال عَزَّ وجل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ فإن تلك الصورتين السيئتين بعيدة عن المؤمنين الذين اتصفوا بأمرين عظيمين، الأول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ لأن حالة الإصابة بالبأساء تتطلب الصبر. والأمر الثاني الذي اتصفوا به هو ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيؤدوا حقوق النعمة التي تصيبهم بفضل الله تعالى ورحمته، فيصرفها ويستعملها وفق ما يحبه الله تعالى ويرضاه. فهؤلاء لا يحصل منهم ما يحصل من أهل الكفر والضلال، لأن المؤمن حال إصابته بالضراء والشدائد فإنه يصبر عليها، لعلمه أنه مأجور على ذلك، ولا يصيبه اليأس والقنوط، بل يحدوه الأمل في الشفاء عند المرض، والرزق عند الفقر، والنعمة عند الفاقة، ولا يكفر بما كان فيه من نعمة، بل يتذكرها ويشكر الله تعالى على ذلك، ولا شك أن هذا ينعكس على سلوكه وعلى نفسيته، وتعامله، وتفاعله مع غيره، ومع أمور حياته المختلفة.

وأما في حال النعمة فإنه يعمل فيها العمل الصالح، وقد ورد العمل الصالح عاما ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لتستوعب وتشمل جميع ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والأقوال الصالحة التي تُرضي الله تعالى، فيحمد الله تعالى عليها، ولا يفاخر ولا يباهي بها غيره، بل يصرفها فيما يحبه الله تعالى ويرضاه،

فيؤدي حقوقها من الزكاة والصدقات، وإعانة غيره بها لوجه الله تعالى، ولا يسرف فيها، ولا يقتر ولا يجحف بها. ولهؤلاء المتصفون بالصبر وعمل الصالحات مكافأة عظيمة جليلة من الله تعالى، وسواء كان ذلك حال النعمة أو حال الضراء، فإن لهم ما قاله سبحانه وتعالى ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فهؤلاء لهم من الله تعالى تكفير ذنوبهم، فلا يفضحهم بما كان من زلاتهم، ويؤجرون أجراً موصوفاً بالكثرة من عظمته. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الذين صبروا وعملوا الصالحات.

وهذا التشخيص لحال الإنسان، وما هو عليه من الطبيعة البشرية، ما يبين أن منهج الإسلام هو منهج إصلاح، وتهذيب، وتربية، وتعليم لهذا الإنسان، بما يحقق له سعادة الدنيا والآخرة، وأن منهج الإسلام يُعَلِّم أتباعه ما يجب أن يكونوا عليه، من خلال كثرة البيان وتنوعه، بل ووفق منهجية التحليل والإيضاح الذي وصل إلى الإعجاز في مضمونه وبلاغته وبيانه.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ
جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ
بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ
يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ
يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم من الله تعالى إلى توجيه رسوله صلى الله عليه وسلم حيال ما يواجه من أعداء الملة، المكذبين بها، وما يصدر منهم من الاستهزاء، والرمي بالسحر، وغير ذلك من الأذى والسوء، فيقول سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ فلعلك لعظم ما تجده من كفرهم وتكذيبهم وسخريتهم واستهزائهم أنك تارك بعض ما يوحيه الله تعالى إليك. فهو سؤال يفيد بيان هول وعظيم ما كان يواجه ويلاقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المكذبين، إلى الدرجة التي تجعل إمكانية الترك لبعض الوحي واقعاً ممكناً. ومع ذلك فهو ثابت صلى الله عليه وسلم على ما أُوحيَّ إليه به من الله سبحانه وتعالى، دون أن يتضعضع أو يتراجع، أو تحدثه نفسه بذلك، فسيرته صلى الله عليه وسلم تترجم ذلك، وتشهد له به.

فهو سؤال يشد الانتباه لعظيم ما كان يجده صلى الله عليه وسلم من الأذى، وعن تحمله لما أصابه من أذى قومه، فقد أوضح الله سبحانه وتعالى عظيم ما كان يواجه صلى الله عليه وسلم بأبلغ بيان، لأنهم بلغوا ذروة الصدود والتكذيب والتعنت، مع ما صاحبه من الأذى الحسي والمعنوي والنفسي التي يُتَوَقَّع من شدته حصول ذلك. ومع ذلك فهو صابر عليهم صلى الله عليه وسلم، طاعة لله تعالى، ورحمة بهم، وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى عن هذه الآية الكريمة: أنه قيل: أن هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام، وقيل: أي هل أنت تارك؟ وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد: أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم جميع ما أنزل الله عليك، أحبوا ذلك أم كرهوا، وشاءوا أم أبو[1] مما يفيد أن هذا البيان من الله تعالى يصور عظيم ما وصل إليه الجاحدون الكافرون من العداوة والعداء لهذا الدين، وعظيم ما تَحَمَّلَه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لم يترك شيئاً مما أنزله الله تعالى عليه، بل كان أميناً على وحيه. فكان النص الكريم غاية في بلاغة البيان، ودقة تصوير حجم الموقف بأدق الأساليب والعبارة، فكان إعجازاً من كل وجه.

بل كان من قوة الأمر وشدته أن الصدر يضيق بما كان منهم، فلا يتحمله الإنسان، حيث يقول تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ فمن عنادهم أنهم يتساءلون بما يتعنتون به من أفكار وشروط، عن أن ينزل الله تعالى عليه كنز من المال الكثير المخزون لينتفع به، فيرونه عنده، أو أن يأتي مَلَك يُوَثِّق ويصدق ويؤكد لنا أن محمداً رسول من الله تعالى. وفي هذا بيان لتعاظم سوء تعاملهم مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدرجة التي يضيق بها الصدر، مما يبين قوة وشدة ما كان يواجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك صبر عليهم، ولم يضق صدره بهم كما هو واقع ذلك الحال الذي يشهد له به تعامله معهم صلى الله عليه وسلم، بل ولم يحنق عليهم، ولم يتمن هلاكهم وزوالهم، بل كان يقول صلى الله عليه وسلم لملك الجبال عندما أراد أن يطبق عليهم الأخشبين في مكة (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا)[2] وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد أن الله مطلع على جميع الأحوال، ومطلع على صبر نبيه صلى الله عليه وسلم وتفانيه في أداء رسالته، قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن مضمون هذه الآية الكريمة: فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى أن لا يضيق صدره بذلك منهم، ولا يصدَّنه ذلك، ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عَزَّ وجل، آناء الليل وأطراف النهار[3]

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٦/٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٨/٢-٤٢٩) برقم (٣٢٣١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٥٥/٢)

وهذا يفيد أن مجال الدعوة إلى الله تعالى محفوف بما تضيق به النفوس، بسبب مواجهة عداوة الصادين الكارهين للحق، وأن على الداعية إلى الله تعالى ألا يضيق صدره بما يقوله أعداء الدين، وأعداء الملة، والمنحرفون من أهل الشهوات والشبهات، بل يصبر، ولا يضيق صدره بما يقولون من استهزاء أو تندر أو غير ذلك. بل إن واجبه هو إظهار الحق، وإعلان الدين وشريعة الله تعالى.

فهذا الأسلوب القرآني البديع يستثير فضول الإنسان نحو المتابعة، والترقب لحاله صلى الله عليه وسلم، إزاء ما كان يواجه، فهل صبر عليهم؟ ليكتشف أنه كان عليه الصلاة والسلام مثالاً للطاعة والحلم والحرص على إسلام العباد، حتى أنه يفرح بإسلام من أسلم ممن كانوا يحاربونه، بل ويشجعهم، ويأخذ بأيديهم، ومن ذلك عندما خرج أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبُدَيل بن ورقاء كعيون لقريش، يلتمسون خبر النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة فتح مكة، وتم القبض عليهم، وقال العباس رضي الله عنه: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال صلى الله عليه وسلم (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فأسلم أبو سفيان رضي الله عنه، فلو لم يكن حريصاً على إسلامه صلى الله عليه وسلم، لما أعطاه هذه المنقبة، وهو الذي قاد جيش قريش في غزوة أحد[١]

ففي هذه الآية الكريمة إثبات درجة وقوة وشدة ما كان يعانيه صلى الله عليه وسلم من قومه، وتقرير حالها بأشد الأساليب استثارة وبياناً، حتى تكون باقية ما بقي هذا القرآن يُتلى، إلى أن يرفعه الله تعالى من الدنيا. وفيه ترهيب وتعجيز للمشركين ومن شاكلهم من أن يحصلوا على مبتغاهم، وأن يثنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته، فإنه ثابت وغير ضائق صدره بما يقولون ويصنعون، ليكون متحدياً أمامهم كالجبال، وأشد صلابة. مما يبين أهمية الصبر، وإظهار القوة للعدو.

وقد وجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يحفزه ويشجعه على ما هو فيه من الدعوة إلى الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ فإن مهمتك أيها النبي أن تنذر هؤلاء الجاحدين الطاعنين في دين الله تعالى، والمتعنتين المستهزئين، فلست بالمكلف بإيقاع وغرس الإيمان في قلوبهم. فقد رفع الله تبارك وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم مسؤولية تحصيل الإيمان منهم، وتحقيق الإسلام فيهم، فإنك لست مسؤولاً عن تحقيق إيمانهم وإسلامهم. مما يفيد: أن واجب الداعية في الدعوة إلى الله تعالى هو القيام بدلالة الإرشاد، وليس عليه تحقيق دلالة التوفيق، فلا يكلف الله تعالى نفساً إلا وسعها، وتمتد فوائد هذا التوجيه الكريم إلى ميدان التوجيه والإرشاد والنصح في جميع مجالات الحياة المختلفة، فإن مسؤولية

(١) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية (٤٧٢-٤٧٣) وفيه فوائد وتحليل لموقفه العظيم صلى الله عليه وسلم

المعلم والناصح والموجه في أداء رسالته محصورة في الاجتهاد وبذل الأسباب في تحقيقها. كما يدل ذلك على واقعية المنهج الإسلامي، وتماشيه في التكاليف مع القدرة التي منحها الله تعالى لعباده، وأنه لا يكلفهم ما لا يطيقون.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فإن الله تعالى مُطَّلِعٌ على خداعهم ومكرهم واستهزائهم، وجميع أقوالهم وأفعالهم، وأنه وكيل على مجازاتهم، وأنه مُطَّلِع على ما تقوم به، وما تبذله من جهد وحرص على إسلامهم، وفي هذا تعزيز وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم. فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية. وليعلم كل أحد أن الله تعالى على كل شيء وكيل، فيحفظ الأعمال، ويجازي بها أكمل الجزاء وأتمه، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى إبطال مزاعم المشركين، فقد قالوا عن القرآن الكريم أنه مفترى، فيواجههم سبحانه وتعالى بالحجة التي تُبطل زعمهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فجاء الرد عليهم بصيغة السؤال الاستنكاري والتقريري، الذي يستنكر منهم هذا القول، وهم أهل العربية، فقررهم ببطلان دعواهم إن لم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، مفتعلات، مختلفات، فإن كان هذا القرآن مفترى ومفتعل عن الله تعالى كما تزعمون، فلماذا لا تفترون مثله بعشر سور مفتريات. بل وزاد عليهم تأكيداً وتعجيزاً لهم، وتقريراً لبطلان مزاعمهم ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فاجمعوا معكم من استطعتم من دون الله تعالى إن كنتم صادقين في وصفكم له بأنه مفترى. ولم يحدد لهم نوع وعدد من يدعونهم، بل حتى لو دعوا الناس جميعهم، والجن معهم، لما استطاعوا ذلك، فإن لم يستطيعوا ومن معهم من دون الله تعالى أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فإنه دليل إثبات على بهتانهم وكذبهم، ونكرانهم للحق، وأنكم قوم بهت، مكابرون للحق.

وفي هذا التعجيز لهم إثبات أن القرآن العظيم من عنده عزَّ وجل. فإن كنتم صادقين في دعواكم أخرجوا لنا عشر سور فقط ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ مما يفيد إن لم تأتوا بذلك فهذا دليل على كذبكم في الوصف. وفي هذا غاية الرد المفحم لهم، وإثبات إعجاز هذا القرآن الكريم بفصاحته، وعلو مقامه ومعانيه، وأحكامه وتشريعه وقوة نظمه، وبلاغة بيانه، وصدق وسلامة مضمونه، فنال كمال الإعجاز الذي لا يمكن أن يأتي الخلق جميعهم بمثله، ولو اجتمع الإنس والجن جميعاً.

وبأسلوب قد استقوى فيه البرهان والدليل تتدرج معهم المحاجة إلى الحكم الذي ينطق بالحق لهم ومنهم، فقال الله تعالى ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فقل يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المعاندين، إن لم يستجب لكم من تدعونهم من

دون الله تعالى، فلم تستطيعوا أنتم وهم على افتراء عشر سور مماثلة لسور القرآن الكريم، حتى أعجزكم ذلك، فاعلموا علم اليقين إذاً أن الذي أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب من عند الله تعالى، وليس كما تدعون أنه مفترى، فقد أُنزل بإذنه.

وقد أفاد حرف ﴿ أَنَّمَآ ﴾ حصر إنزال القرآن الكريم بعلم الله تعالى، فهو عالم بإنزاله، وبما أخبر به فيه من الغيب، فأثبت ما سلف، وأعلم ودل على ما سيكون عليه الخلائق ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فأيقنوا أنه أُنزل من عند الله تعالى، وأيقنوا أنه لا معبود يستحق العبادة، وإخلاصها له، وتوحيده، وافراده بالعبادة إلا هو عَزَّ وجل. لتنتهي الآية الكريمة بسؤال استفهام يحثهم على الاستجابة للحق، والإذعان له ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فهل أنتم مسلمون ومستسلمون لله تعالى بعد عجزكم ومَنْ دعوتم من دون الله تعالى بأن تفتروا عشر سور مماثلة للقرآن، فهل أنتم بعد هذا العجز مذعنون لله تعالى، ومصدقين بالقرآن الكريم، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. بما يدل على أنكم إن لم تستجيبوا فإنكم معاندون مكابرون ومفترون وظالمون، فهو استفهام تقريري، يقررهم بأنه وجب عليهم الاستسلام لله تعالى. فهذه محاجة بليغة ومتدرجة، ومنصفة بإحكام بديع، بما يدل على أن الله تعالى يخاطب العباد بالحجة والبرهان، وأن هذا الدين هو دين الحقيقة الساطعة بالمعجزات، وأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى، أعجز أهل العربية الأقحاح أن يأتوا بمثله.

ثم بعد بيان الحقيقة بالدليل والبرهان، يبين ويكشف سبحانه وتعالى عن مراد الإنسان واختياره بعد معرفته وإيقانه بالحقيقة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ فيوجه سبحانه وتعالى عباده بأسلوب التعميم: أن من كان مراده بأعماله الحياة الدنيا وزينتها من البهجة بالأموال والصحة والجاه وما تتزين به الدنيا ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ نستوفي لهم في الدنيا أجور أعمالهم، ولا يُنقصون من أعمالهم في الدنيا شيئاً، وذلك وفق مشيئة الله تعالى وإرادته وحكمته، ولذلك يتمتع الكفار والعصاة بالصحة والرزق من باب استيفاء أعمالهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة... قيدها قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[1] قيدها سبحانه وتعالى بمشيئته.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩)

ومن غزارة عطاء الآية الكريمة أن ورد سياقها باعتبار ما قبلها من الآيات الخاصة بالمفترين، فإنها توجيه وبيان لهم بأن ما هم فيه من الرزق والإنعام من زينة الحياة الدنيا فما هو إلا استيفاء لمرادهم من الدنيا، ووفق مشيئة الله تعالى. وأما باعتبار الآية نصاً مستقلاً فهي عامة لكل أحد، لتشمل حتى من يرائي من المسلمين ببعض أعماله، فلا يخلصها لله تعالى، فإنه يستوفي مراده في الدنيا، وليس له منها حظ في الآخرة، ليتبين أهمية الإخلاص لله تعالى. وقد أورد ابن جرير رحمه الله تعالى من الأقوال عند هذه الآية قول مجاهد رحمه الله تعالى: من عمل عملاً مما أمر الله به، من صلاة أو صدقة، لا يريد بها وجه الله، أعطاه الله في الدنيا ثواب ذلك، مثل ما أنفق[(١)]

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه لا حظ لأولئك في الآخرة من أعمالهم التي عملوها من أجل الدنيا وزينتها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فهؤلاء الذين يوفيهم الله تعالى أجورهم في الدنيا ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فاشتملت خسارتهم على ثلاثة أمور عظيمة، الأول: ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ أي: أنهم في الآخرة محصورون في عذابها. وقد جاء البيان بأسلوب الحصر ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ ليفيد أنه ليس هناك مخرج منها أبداً. والأمر الثاني: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ أي: بطل وانعدم ما كان لهم من أعمال في الدنيا، فذهب ما عملوا في دنياهم، باستيفائها في حياتهم كاملة، والأمر الثالث: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فكانت أعمالهم في نفسها باطلة، فأبطل وأحبط الله تعالى أُجُور أعمالهم، لأنها لم تكن لله تعالى، بل كانت لتحصيل الدنيا وزخرفها. مما يفيد ويبين فيما يخص المسلم: أهمية الإخلاص لله تعالى، والحذر من الرياء فيما لا يُصرف إلا لله تعالى، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والدعاء وغيرها من العبادات، فكل عمل يبتغي به المرء الدنيا وزينتها فإنه لا يُقبل عند الله تعالى. وأما الكافر فليس له الحظ البتة في الآخرة إلا النار.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٨/١٢)

يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا
كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ
ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر ويوجه الله تعالى عباده بأسلوب السؤال الاستفهامي الذي يثير التأمل والتفكر لتحصيل التعقل، واختيار الصواب بالحجة والبرهان ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أفمن كان على حجة وبصيرة من ربه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ويتلوه شاهد منه، الذي هو جبريل، ويؤيده شاهد ثالث: وهو التوراة، كتاب موسى عليه السلام، كمن لا حجة ولا برهان على شركه وكفره، فيكذب بمن هو على بينة، ويكفر بالآيات والبراهين، ويؤمن بمن هو على جهل وضلال.

فبدأت الآية الكريمة بالاستفهام ﴿ أَفَمَن ﴾ الذي يقرر به السياق الحقيقة بالبرهان والدليل، والاختيار الذي يتفق عليه العقلاء من الناس فيؤمنوا به، إلا من كان له مآرب ومسالك من الجحود والنفاق، ومحبة تقديم الدنيا وزخرفها على الآخرة ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أفمن كان على حجة وبرهان ونور من ربه تبارك وتعالى، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، بما معه من البينة من ربه تبارك وتعالى، وهو الوحي والقرآن الكريم ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما قال به ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد والضحاك وعكرمة، وقال ابن جرير الطبري: وهو أولى الأقوال بالصواب[1] رحم الله تعالى الجميع. ثم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٣٥٧-٣٦٠)

يذكر الله تعالى حجة شاهدة ثالثة أخرى ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ فالتوراة التي أُنزلت قبل القرآن على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إِمَامًا﴾ هداية لبني إسرائيل ﴿وَرَحْمَةً﴾ فهي رحمة لمن آمن بها، وفي هذا مدح وتزكية للتوراة، فإنها تشهد بالصدق لهذا القرآن ومبشرة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بوصفه الذي هو عليه، وكذلك لما فيها من التصديق بالقرآن بما تضمنته من التوافق مع القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فأولئك يصدقون بالقرآن ويؤمنون ويعملون به، فهم على بينة وحجة من ربهم، فتحقق لهم الإيمان بالقرآن الكريم، فإن كفرتم به أيها الكافرون من المشركين وغيرهم فإن هؤلاء الذين ذكرت يؤمنون به.

ومن رحابة دلالة النص الكريم أنها أعطت ثلاثة دلالات لا تعارض بينها على المقصود بمضمون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قد ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وهي: أنه إشارة إلى أصحاب موسى عليه السلام، وأنه إشارة إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه إشارة إلى أهل الحق من أمة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم[1] مما يفيد أن السابقين من أهل التوراة والإنجيل يؤمنون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبما ينزل عليه من الحق، لما كان عندهم في التوراة والإنجيل من البشارة به عليه الصلاة والسلام، وكذلك آمن به المؤمنون في عهده، وينظم إليهم كل من آمن وصدق بتلك البينات، فإن كل من استنار بهذه البينات من الحجج والبراهين فإنه يُصَدِّقُ ويؤمن بالله تعالى وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن إلى يوم الدين، فأولئك هم المهتدون المؤمنون به، وأما من جحد هذه البينات فموعده النار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مما يفيد أن موعد أولئك المؤمنون به هو الجنة، ومن كفر من سائر طوائف البشر، فموعدهم عذاب النار. وفي هذا موعظة وبيان للحقيقة وإلى ما يسير كل طريق بصاحبه، فلكل أحد أن يختار ما ينجو به، أو ما يؤول به إلى العذاب.

ثم يتجه الخطاب إلى النبي مباشرة صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ فإن كان هؤلاء المكذبين في مرية وشك منه، فلا تكن أيها النبي في شك منه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا تكن في شك من أن موعد ومصير الكافرين النار، وفي هذا تعريض بغيره، وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم على كمال اليقين من أن ما ينزل عليه هو وحي من ربه تبارك وتعالى، وأن موعد ومصير الكافرين النار. وسيرته العطرة دالة على ذلك، وموضحة لكمال إيمانه عليه الصلاة والسلام، ومن فوائد هذا السياق الكريم: أنه إذا كان هذا التوجيه للنبي عليه الصلاة والسلام بأن لا يكون في مرية منه، فإن على من آمن ألا يتأثر بأقوال وشكوك

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٧٣)

الكافرين، وأن عليه أن يثبت، ولا يكن في مرية منه. وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى بأن: فيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم، لأنه معصوم عن الشك في القرآن، أو من الموعد ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بذلك، مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً[١] وفي هذا تنصيص على أن الكثرة هم الكافرون، وأن نسبة المؤمنين أقل من الكافرين. فلا أحد يغتر بالكثرة، ولا بطعن الطاعنين.

ثم يتدرج سياق الآيات الكريمة إلى بيان فداحة، وقدر ظلم أولئك الذين افتروا على الكذب، ليدرك الإنسان خطر جرأته، وقوة إثمه، وعظيم الجزاء الذي سيناله، وما يلحقه من الفضيحة على رؤوس الأشهاد، فقال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فبدأ النص الكريم بسؤال استنكار، وتعظيم هول وفداحة افتراء الكذب على الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فهل هناك أكثر ظلماً للنفس من أن يفتري صاحبها على الله تعالى الكذب، فينسب القرآن المعجز لغير الله تعالى، ويَدَّعي زوراً وبهتاناً أن القرآن العظيم مُفْتَرى من رسوله صلى الله عليه وسلم، والذي قد عجزوا عن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ويَدَّعُون أن لله تعالى شركاء، وأن أصنامهم شفعاء لهم عند الله تعالى. فإنه ليس هناك أحد أعظم ظلماً من هؤلاء. فهو سؤال استنكار لفعلهم، وتقرير بأنهم أعظم مخاليق الله تعالى ظلماً، وافتراء الكذب على خالقهم.

وفي هذا تعظيم لخطورة من يفتري على الله تعالى الكذب. فهؤلاء الذين بالغوا في الظلم سيعرضون على ربهم ﴿أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بما يفيد أنهم سيحاسبون على ذلك، ويجازيهم الله تعالى بما يناسب مبالغتهم في الظلم وافتراء الكذب على الله تعالى، قال الزجاج: ذكر عَرْضَهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم، وإن كان غيرهم يُعرض أيضاً[٢]

ومن جميل البيان أن ابتدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ للتنبيه والتخصيص بأن الذين يعرضون على ربهم للانتقام منهم هم أهل الافتراء. ومن هول ذلك اليوم هو افتضاحهم أمام الخلائق، من الملائكة

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٨/٢-٤٨٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٤/٤)

والرسل والأنبياء، وسائر الخلائق ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ من الملائكة والأنبياء الذين شهدوهم، وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون، وكذلك الملائكة الحفظة، وسائر من شهدهم من الخلائق ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فيشهد هؤلاء الأشهاد في الآخرة على هؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب في حياتهم الدنيا بما كان منهم، والله تعالى عليم بما كان منهم، فلا يحتاج إلى شهود، ولكن لتعظيم الأمر، وبيان عدل الله تعالى، وإثبات ما كان منهم بشهود عدول، قائلين ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي: ألا غضب الله تعالى على هؤلاء المفترين الكذب على الله عَزَّ وجل. بما يفيد الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى. وفيه تسميتهم بالظالمين، ونعتهم بهذا الوصف الدال على أن صفتهم الظلم. ومن فيض إعجاز البيان وعطائه أن جملة ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ من قول الأشهاد في وصفهم للمفترين على الله تعالى الكذب، وتكون كذلك من قول الله تعالى في وصفهم، فهم يستحقون الوصف من الله تعالى ومن الأشهاد بذلك، فأعطى سياقها في الجملة هاتين الدلالتين، فاستوفوا ذلك بجملة واحدة، وهذا من بلاغة البيان ودقة إعجاز تراكيب ألفاظه وكلامه، وكذلك استهلت الجملة بأداة التنبيه ﴿ أَلَا ﴾ بما يشد الانتباه إلى ما يستحقون من الوصف والطرد من رحمة الله تعالى.

ويستمر الوصف للظالمين تأكيداً بالمزيد من الكشف عن حقيقتهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أي: ألا لعنة الله تعالى على الظالمين الذين يصدون ويردون الناس عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل من الوحي، فيصرفون الناس عن الحق المستقيم بما يفترونه من الكذب، والتشجيع على الكفر وعدم الإيمان. وأن هدفهم وغايتهم هو ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فإرادتهم ومطلبهم الذي يتمنون تحقيقه هو أن يكون الناس على عوج من دينهم، وهذ خال إن لم يتمكنوا من صدهم، فهدفهم أن يكون دين الله تعالى معوجاً بأهله وفي منهجه. وحقيقة هؤلاء: كفرهم بالبعث بعد الموت ﴿ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ فمع صدهم، وابتغائهم اعوجاج هذا الدين وأهله فإنهم كافرون جاحدون للآخرة، بل قرر الله تعالى ذلك بتكرار ﴿ هُمْ ﴾ بعد ﴿ وَهُم ﴾ توكيداً وتقريراً لنكرانهم البعث بعد الموت، فأنكروا الآخرة، وكفروا بها.

ومن فيض قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ أن الوصف جاء بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يفيد استمرارية الصد من كل من اتصف بصفاتهم، لتشمل أولئك الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك من يسير سيرهم من بعدهم، مما يفيد أن هذا الصنف مستمر، ومتعاقب وهو الأمر الذي يحصل من المنافقين، وغيرهم من أهل الزيغ والفساد، فيسعون في صد الناس عن دين الله تعالى، والعمل على تحريف الدين، وبذل الجهد في انحراف الناس عن دينهم، وإدخال الشبه، والشرك باسم الدين، من أجل أنهم يبتغون سبيل الله تعالى عوجا. مما يوجب الحذر من هؤلاء.

ويستمر البيان في حق المفترين على الله كذباً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تأكيدا وبياناً وحصراً وتخصيصاً بأنهم المعنيون بما سبق في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ فهؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب لم يكونوا معجزين الله تعالى بأن يأخذهم بالعذاب في الدنيا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فليسوا بخارجين عن قدرة الله تعالى بإهلاكهم وهم في الأرض، قبل انتقالهم إلى الآخرة. مما يبين حكمة الله تعالى، وحلمه، وأنه لو يعجل لكل أحد عقوبته لهلك الناس من كثرة المعاصي والآثام. كما أن في ذلك بيان لهم ولغيرهم بأن لا تغتروا بتأخر عذاب الله تعالى عنهم، فإن تأخره ليس تصويباً وموافقة على كفركم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ وليس لهم من دون الله تعالى أحدٌ يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى إذا حل بهم. فليس لهم ممن يوالونهم، من الأصنام أو غيرها ممن ينقادون لهم، وما يغرونهم به. ليفيد أن عدم تعجيل العقوبة لهم هو قدر من الله تعالى وحكمة، ومن تلك الحكمة الربانية مضاعفة العذاب لهم يوم القيامة ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ فتأجيل عذابهم إلى الآخرة ليتضاعف لهم العذاب بما يستحقون ﴿ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾ فلم يكن المانع لهم من قبول الحق هو عدم قدرتهم على سماع آيات الله تعالى، ولا عدم إبصارهم ورؤيتهم للحق، فإن أسباب إفراطهم وبُعدهم عن الحق انتفت عنهم، بما تحقق لهم مما سمعوا وأبصروا من آيات الله تعالى وحججه القائمة عليهم، وأن إفراطهم ومبالغتهم في البعد عن الحق هو إفراط تعمد عن علم به، وإصرار منهم. ولكن حالهم كحال الذي لا يسمع ولا يبصر أمام الحق. فما كانوا يتأملون فيما يبصرون من آيات الله تعالى المرئية، وما كانوا يتدبرون ويتأملون ما يسمعون من آيات الله تعالى المقروءة والمتلوة عليهم. مما يفيد أن آلة السمع والبصر جارحتان أو آلتان عظيمتان في معرفة الحق، وأن الأشر والكبر والتمادي في المعصية، يسير بهاتين الجارحتين نحو التغافل عن الحق في صغيره وكبيره، مما يجب الانتباه لذلك،

وتوظيف السمع والبصر والفؤاد فيما خُلِق من أجله. ومن الفوائد أن عدم تعجيل العقوبة للعاصي هي حكمة من الله تعالى وليس عجزاً، ولكنها الفرصة للتوبة، والرجوع للحق، وأن الله تعالى قد يضاعف العذاب لمن تمادى في محاربة دينه.

ومن دقائق الآية الكريمة أن تركيب ألفاظها لم ينف عنهم السمع والبصر، بل نفى عنهم ما يستطيعون من توظيف أبصارهم وأسماعهم للحق الظاهر في آيات الله تعالى المرئية، والمسموعة مما يُتلى عليهم من كتاب الله تعالى ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ مما يفيد أن البصر والسمع إذا لم يتم توظيفهما في التأمل والتفكر والتدبر، فإنه تعطيل لهاتين الجارحتين العظيمتين عن الحق الذي يرفع صاحبهما عن الخزي إلى علو الدرجات. فتوظيف الجوارح مع ما وهب الله تعالى من العقل قضية مهمة، مما يدل على أن الله تعالى خلق هذا الإنسان بما يمكنه من معرفة الحق وسلوكه.

ثم يصف الله تعالى مقدار خسارة أولئك المفترين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فبدأ تبارك وتعالى باسم الإشارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تخصيصاً وتأكيداً آخراً بعد ذكره في الآية السابقة. فهؤلاء خسروا نجاة أنفسهم من العذاب، وخسروا الجنة، وأوردوا بأنفسهم في العذاب المقيم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وافترق وتاه عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، فلم يجدوها في الموقف الذي يُطلب فيه النجاة من عذاب الله تعالى، مما يبين لهم ولكل أحد مقدار ما وقعوا فيه من خسارة وضلال، ولذلك حققوا الخسارة الفادحة لأنفسهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ فحقاً، قد أكسبهم ذلك الفعل الخسارة التي لا يستطيعون تعويضها، ولا تفاديها، فقد بلغوا في الخسران الحد الذي يبلغه ممن كان مثلهم، فهو مبالغة في وصف فداحة خسارتهم في الآخرة التي ليس لها علاج البتة.

وكلمة ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ تفيد المبالغة، بأنهم في الآخرة هم أكثر خسارة من غيرهم الخاسرين، فهناك خاسرون، وأخسرون، ورابحون. فالخاسر قد يخسر شيئاً، أو أشياء، وهناك الأخسر، أي: الأشد خسارة، وهم الذين لهم سوء العذاب. وهذا من تنوع العذاب في درجاته. ومن الدلائل البيانية أن كلمة ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أفادت: الأشد خسارة، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم، فأصبحوا في عذاب لا ينقطع. كما وقد تأكَّدَ خسرانهم بقوله تعالى ﴿لَا جَرَمَ﴾ وكذلك بحرف التوكيد **(أن)** من قوله تعالى ﴿أَنَّهُمْ﴾ بما يفيد قوة التأكيد الذي يعطي دلالة التهويل والتحذير مما هو قادم لمن كفر. كما تكرر اسم الإشارة مرتين ﴿أَنَّهُمْ﴾

وكذلك ﴿هُمْ﴾ لإفادة حصر الموصوفين بالكفر بأشد الخسارة وأنكاها، لأنهم خسروا الجنة التي لا يمكن لهم دخولها أبداً، مع استمرارهم في عذاب جهنم الذي لا ينقطع عنهم.

وبعد بيان الله تعالى لما يتعلق بالمكذبين الذين بالغوا في كفرهم، وما يستحقون من العذاب، انتقل السياق الكريم إلى حال المؤمنين الذين نالوا أقصى وأرفع الدرجات بإيمانهم، وطاعتهم وإخباتهم لله تعالى، لتظهر الفروق بين الفريقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإن الذين صَدَّقُوا بجميع ما يجب التصديق به مما جاء عن الله تعالى، وحققوا الإيمان، وتابعوا إيمانهم بعمل الصالحات ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن أدوا ما فرضه الله تعالى عليهم من العبادات، وما شرع لهم من المعاملات ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فخافوا ربهم، وأنابوا وثابوا إليه، فاطمأنوا به مخلصين خاشعين لربهم، متواضعين له تبارك وتعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهؤلاء هم أهل الجنة المصاحبين لها، الخالدين فيها أبداً. فمرتكزات الفلاح هي الإيمان، وعمل الصالحات، والاخبات لله تعالى.

ثم يأتي المزيد من تعزيز مسلك أهل الإيمان بعقد المقارنة بين الفريقين بأوجز البيان وأعمقه ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فمثل الفريق المؤمن والكافر كمثل الذي استوفى جوارحه والذي لم يستوفيها، فكان فاقداً لها، فقد شبه الله تعالى الكافر بالذي فقد بصره ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ فلا يرى شيئاً من آيات الله تعالى، فلا يبصر الحق من آيات الله تعالى العظيمة، وكذلك اجتمع له مع فقد البصر فقدانه للسمع ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ فلا يسمع الحق الذي يهتدي به، فغاب عن هؤلاء مصادر التلقي بتعطيلهم لها عن معرفة الحق من حجج الله تعالى وبراهينه، فأصبح حالهم كحال من لا يرى ولا يسمع، بسبب ما كان منهم. بينما مثل المؤمنين كمن استوفى كمال الجمع بين البصر والسمع، واستخدمها فيما خُلِقَت له، وهم الموصوفون بقوله تعالى ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فيرى آيات الله تعالى المنظورة ببصره، ويسمع آيات الله تعالى المنطوقة بسمعه، فاستخدموا أبصارهم وسمعهم في الحق، فتحقق لهم الهدى.

فشبه الله تعالى المؤمنين بالذي يبصر ويسمع، فيعي، ثم ينقاد للحق الي أبصره وسمعه، بينما أولئك الكفار لم ينتفعوا بالجارحتين العظيمتين البصر والسمع. مما يفيد ويبين عظيم وعظمة نعمة هاتين الجارحتين: السمع والبصر، وأهمية استخدامها فيما ينفع، وفيما خُلِقَت له. وهو الاستخدام الذي يحقق للمرء الفوز في الدنيا والآخرة.

ومن دقائق البيان استخدام لفظ فريق، لأن الفريق يحمل دلالة الفوارق، بأنه توجد مفارقات بينهما، فكل فريق مختلف عن الآخر ومفارق له في إيمانه، ومفارق له في منهجه، وفي استخدامه لحواسه، وفي تعطيلها وتوظيفها فيما خلقت له، وفي نواياه، وفي مآله وخاتمته، ونوع جزائه. فكانت الكلمة الأدق تعبيراً في هذا المقام.

ثم يوجه الله تعالى المخاطبين إلى التبصر في هذا المثل بسؤالين عظيمين، يستثيران التأمل والتدبر والتفكر، فالأول: استنكار ونفي ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ فهل يستويان في المشابهة؟ وهذا سؤال عن الصورة الحسية، من باب النفي المتقرر حقيقة وعقلاً، فهو ينفي استوائهما، ويقرر افتراقهما، فهل يستوي من اجتمع له البصر والسمع، وبين من فقد البصر والسمع؟ فالجواب من كل أحد هو: لا يستويان، فاستنكر السؤال أن يحصل بينهما استواء في المسلك والاتجاه والنتيجة، بما يستثير الذهن للتأمل والتفكر في العاقبة، نحو اختيار الأفضل والأكمل، ليأتي السؤال الثاني التقريري ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في عدم استوائهما، وفيما بينهما من الفروق والتفاوت العظيم، بما يقرر لكل أحد من الخلق إزاء هذا المثل أن عليه لزوم مسلك من يبصر ويسمع الحق ويهتدي به، ولا يكون حاله كحال من فقد البصر والسمع، حتى يدرك بها آيات الله عَزَّ وجل، مما ينبه بهذا النص الكريم أن على الإنسان أن يستخدم حواسه استخداماً يوصله للحق، بالتأمل والتفكر والتبصر، وكذلك فيه ثناء على المؤمنين، وتزكية لهم ولحواسهم وجوارحهم وتفكيرهم وفكرهم، ويؤكد لهم بأنكم اخترتم الطريق الصحيح، واستثمرتم نعمة الجوارح فيما خُلِقت له . مما يؤكد ويبين أن هذا الدين قائم على ركائز العلم والإقناع بالشواهد، وضرب الأمثال، وتقريب الصورة للأفهام، والمواعظ، وقوة البيان وإعجازه، وتنويع الحجج والآيات، فليست هناك وسيلة موصلة للحق إلا قدمها واستعملها.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا
نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ
كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ
أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي
مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي

مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ينتقل التوجيه الكريم من الله تعالى إلى الموعظة بما كان من قصص الأولين من المكذبين بالمرسلين، وما كان منهم من التكذيب، وكيف نجى الله تعالى رُسُلَه. وبدأ عَزَّ وجل بقصة نوح مع قومه، حيث نَجَّا اللهُ تعالى نوحاً والذين آمنوا معه، وأغرق المكذبين الضالين ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ وقد عطف الله تعالى قصة نوح عليه السلام وقومه بواو العطف على ما سبق من بيان حال المكذبين المفترين ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ ليفيد الوعظ للمكذبين بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويبين لهم ما أصاب المكذبين من قوم نوح من الغرق، نتيجة كفرهم بما جاءهم من الحق، ليكون ذلك موعظة لهم ولغيرهم إلى أن تقوم الساعة، وكذلك فيها تقوية وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيما يلاقيه من الصادين المكذبين من قومه، ومن غيرهم. وقد أكد الله تعالى ذلك بأداة التحقيق، **(قد)** من قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ فيذكر الله تعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ ليفيد: كما أنه أرسل نوح إلى قومه، ولم يرسل إليهم مَلَك من الملائكة، فكذلك أرسل محمد صلى الله عليه وسلم إليكم، فما الفرق بينكم وبينهم، إذ أرسل لهم رجلاً منهم، يعرفونه حق المعرفة بسجاياه الرفيعة، كما تعرفون محمد صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وسجاياه التي لا تعيبون منه فيها شيئ، وفي هذا تأكيد وإثبات أن بعث الرُّسُل يكون من قوم المرسل إليهم، ومؤكداً ذلك ببيانه وتأكيده سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ فنسبه فيما أرسل به إلى قومه، قائلاً لهم ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ فإن وجه الإرسال وقاعدته قائم على الإنذار الواضح ﴿ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ بما يدل على أنه قائم على الحجة والبرهان التي أثبتت أنه ينذرهم مما هم فيه، من أجل أن يلزموا ما أمرهم الله تعالى به. وكون البشارة لم تُذكر لا يعني أنه ليست هناك ثمة بشارة، ولكن ليظهر تماديهم في الكفر، فاحتاج الأمر إلى إبراز الإنذار.

ومن براعة السياق أنه انتقل من أسلوب الإخبار عن الغائب ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ إلى مخاطبة نوح إلى قومه مباشرة ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ دون أن يجد القارئ والسامع أي اختلال في انتقال السياق، ليظهر الإعجاز في بناء السياق في القرآن الكريم، والذي لا يستطيع البلغاء ولو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله. وكذلك تأكيد حرص نوح عليه السلام فيما أنذر قومه منه، بقوله ﴿ إِنِّي ﴾ لتفيد حرصي عليكم،

إني حريص عليكم، ثم تأكيد الحرص بخوفه عليهم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مما يبين ويؤكد حرصه وقوة مراده لهم بالخير، مما يبين أن المرسلين عليهم السلام يحملون هم من أُرسِلُوا إليهم، بحرصهم على إسلامهم وطاعتهم لربهم تبارك وتعالى، واتقاء العذاب، والفوز بما عند الرحمن من جنات النعيم.

ثم أوضح لهم البيان الكريم أن إنذارهم قائم على تحقيق العبودية لله تعالى وحده لا شريك له ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فالإنذار هو من أجل أن تتركوا كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى، وأن تُفرِدوا الله ربكم سبحانه وتعالى بالعبادة، ثم يتدرج معهم إلى بيان علة نهيه لهم عن عبادة غير الله تعالى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤكداً إنذاره بحرصه وخوفه عليهم من يوم يكون فيه عذاب الله عَزَّ وجل شديد أليم. وسواء كان ذلك اليوم هو يوم الطوفان الذي يُحَذّرهم منه، أو عذاب يوم القيامة. ولا يمنع أن يكون الأمرين معاً، فاستجمع السياق بقوة بيانه وجزالة عطائه إمكانية اليومين معاً، واحداً بعد الآخر. وبالرغم من أن الألم إنما يقع على البدن إلا أنه سبحانه وتعالى أوقعه في الوصف على الزمن ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ لأنه يوم القيامة، والذي يفيد شدة هوله وفواجع وقوعه من كل صوب، فكيف عند وقعه وملامسته للبدن.

ثم يبين الله تعالى مبادرة قوم نوح له بالصدود، وإعلانهم التكذيب له بثلاث علل، الأول: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فقال الملأ الذين هم سادتهم، من أهل الوجاهة فيهم، والذين قد وصفهم الله تعالى بالكفر ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لتفيد الذم بما يستحقون من هذه الصفة ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فما أنت إلا آدمي من جنس البشر، تَمَاثَلْنَا في الخصائص البشرية، فكيف تزيد علينا بالنبوة والرسالة، بما يفيد أنهم لا يرون أن يكون الرسول بشراً. وقد فاتهم أن النبوة اصطفاء من الله تعالى لمن يشاء من عباده، وأن الفوارق البشرية ليست محصورة في المهنة والمال والوجاهة، التي تَعَارَفَ الناسُ عليها، بل هناك فوارق في الأمانة والأخلاق والأهلية التي يحددها الله تبارك وتعالى فيمن يختاره لرسالاته.

وأما العلة الثانية لتكذيبهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ لم يقتدي بك ويؤمن لك إلا الأراذل من قومنا. فلم يتبعك كبراء وعلية القوم. مما يُوجِبُ تكذيبنا لك، وعدم تصديقنا بنبوتك ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ فبحسب مقاييسهم الفاسدة أن الذين آمنوا به، واتبعوا نوح عليه الصلاة والسلام هم سفلة القوم حسب تفكيرهم وتعليلهم، ولم يتبعك الكبراء والسادة والأعيان من الملأ. فهنا ظهر التصنيف البشري، والتقييم للآخرين من خلال المواصفات

التي يثمنون بها بعضهم البعض، وهي مؤهلات الوجاهة في المال، والصنعة، ونحو ذلك مما يتفاخر ويتطاول الناس به على بعضهم البعض. وهنا أظهروا تطاولهم على غيرهم، بما يفيد ويكشف منهجهم السقيم، الذي أودى بهم إلى تكبرهم على من هم دونهم في المال والصنعة والوجاهة، حيث حصروا الرفعة في ذواتهم، وجردوا غيرهم من ذلك، حتى ولو كانوا أفضل منهم رأياً وعقلاً وفكراً، فاسترذلوا من آمن من الفقراء والضعفاء، واستصغارهم لصنائعهم ومهنهم.

ثم أردفوا تأكيد تكذيبهم بعلة أخرى، بأن هذه المؤشرات هي دلائل ظاهره وواضحة من أنك لست رسولاً ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ أي: فما تبين لنا من ظاهر الرأي، ومن غير تعمق في التفكير بأنك لست رسولاً، وكأنه من بديهيات الرأي والفكر أنك لست بنبي، فكيف لو تعمقنا في التفكير والنظر في أمرك، لظهر ما هو أكثر وأكبر من ذلك، فلا يحتاج تكذيبك لكثير من التأمل والتفكر. مما يفيد أن تكذيبهم كان مسارعة من غير تعقل وتفكر، مما يعطي ويبين أن الحيثيات إذا كانت خاطئة، خرجت النتيجة خاطئة، وأن الأحكام المسبقة كفيلة بصد الحقيقة وتكذيبها.

ومن دقائق السياق أن جملة ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ تحمل وجهاً آخر، بأن الذين اتبعوك، قد أطاعوك من أول ما ظهر لهم من أمرك، فاتبعوك ظاهر الرأي، حين سمعوا منك، ولو أمعنوا النظر لما تبعوك. وعلى الوجهين يمكن أن تكون الجملة، فأعطى موقعها في أسلوب السياق ما يغني عن تكرارها مرة للقائلين من الملأ، ومرة عمن رموهم بأنهم الأراذل. وهذا من الإعجاز البياني الذي يعطي دلالتين أو أكثر، في تظافر ومن غير تعارض. ومن فوائد البيان أن الهداية للحق ليست مبنية على الوجاهة، بل مبنية على توفيق الله تعالى، وأن من كان مسترذلاً عند غيره لسوء تفكيرهم، فقد يكون رفيعاً عند أهل الإيمان والتقوى، وعند الله تبارك وتعالى، وأن الحقيقة تبين وتؤكد أن مقامات الناس لا تقاس بمقاييس البشر الجاهلة التي حصروها في المهنة والمال والحسب والنسب، بل هي بما يعطيه ويفضيه الله تعالى على عباده من العقل الرشيد والاستقامة وقبول الحق والسير فيه.

وأما العلة الثالثة: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ فليس لكم من فضل علينا في الخلقة، ولا في المال، ولا بالملك. فليس لك ولمن اتبعك مزية تتفضلون بها علينا، وتتفوقون بها، حتى تتأهل أنت يا نوح للنبوة، ويتأهل من أطاعك واتبعك بفضيلة ومزية الاتباع لك، لتحثنا وتجعلنا نتبعكم طلباً لها. ثم انتقلوا إلى تأكيد تكذيبهم لنوح ومن آمن معه ﴿ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ بل نعتقد أنكم كاذبين، فأنت كاذب في دعوتك، وهم كاذبون في متابعتك. فاجتمعت صفة التكذيب في السياق بين نوح عليه السلام، وبين من آمن معه. فنحسبك كاذباً، ونحسبهم يكذبون عليك في تصديقهم. مما يكشف طويت المكذبين وحالهم،

بأنهم يتطاولون في تبرير تكذيبهم، وإيجاد العلل الواهية التي لا تقوم على براهين غير متابعة الهوى، والحفاظ على سيادتهم في أقوامهم، ووضع العلل التي يُبعدون بها غيرهم عن متابعة نوح والإيمان به عليه الصلاة والسلام.

ثم يخبر الله تعالى بما رد به نوح عليه السلام على قومه ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ فبدأ نوح عليه الصلاة والسلام رده عليهم بأحسن الأساليب وأكملها. فقد بدأ خطابه لهم بمناداتهم ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ للفت انتباههم، وبيان أهمية ما يناديهم إليه، ويخاطبهم فيه. ثم حدد مع النداء موقعه منهم ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ بأنكم قومي الذين انتسب إليهم، بما يدل على حرصه عليهم، وتقديره لهم، واهتمامه بشأنهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فذكَّرهم بالأصل، أنه واحد منهم، وأنهم قومه الذي ينتسب إليهم، ويعتز بهم، مما يبين أهمية اللطف في الوعظ والمناقشة والمحاورة. ثم يناقشهم بأسلوب استثارة الذهن نحو التأمل والتفكر، وهذه من الحكمة القوية في جعل الخصم يستدل هو بنفسه على الحق، ويصل إليه، لأن المتكبر لا يقبل الحق المطروح، فاستخدم الحوار والتعليل والبيان ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ فطرح عليهم بينته التي أظهرها السؤال، بفرضية أنكم غير مقرين بما جئتكم به من حجة وبينة من عند الله تعالى، وهي حجة على بصيرة ويقين. والبينة تعني الحجة الواضحة الجلية، والتي وصفها بأنها من الله تعالى ﴿ مِّن رَّبِّي ﴾ ليفيد أنني لم أخترعها وابتكرها من عندي، بل هي من عند الله تعالى، وقد أعطاني ووهبني ربي الرسالة ﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾ وهي النبوة والهداية، وتم تسميتها بالرحمة، لأنها رحمة من الله تعالى بالعباد. ولأنها تضمنت الرحمة لمن آمن واتبع هدى الله تعالى.

ثم ينقلهم إلى عدم إدراكهم لها بأسلوب الملاطفة ﴿ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فخفيت عليكم، فلم تصدقوا بها، وذكر لهم استخفائها بأسلوب المبني للمجهول تلطفاً في مخاطبتهم، فلم يقل عُميتُم عنها، أو خفيت عليكم، فيشعرون باستعلائه لنفسه، وتنقيص قدرهم، ولكن جعلها بأسلوب الذي لم يُذكَر فاعلها ﴿ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ليتبين أهمية العناية بالمخاطبين، لأن الهدف هو هدايتهم وليس التعالي عليهم والتنقص منهم. وفيه استحثاث لهم نحو التأمل والتفكر، وليس الاستعجال في الحكم كما قالوا سابقاً ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ ففيه تعريض بما كان منهم من الاستعجال والمبادرة بالحكم دون تأمل وتريث وتفكر.

ثم انتقل عليه السلام إلى الجواب على ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ فإن خفيت عليكم البينة، وحقيقة الرحمة والهداية والنبوة حتى أنكم لم تصدقوا حجتي وبينتي، وما آتاني ربي من النبوة والهداية، فلا يمكن أن نجبركم وأنتم معرضون عنها ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ وهو استفهام إنكاري على أن يكون لنا الحق والقدرة على إلزامكم بما تكرهون من الحق، ليبين لهم أن حقيقة القبول قائمة على القناعة والرضا، وليس على الإجبار، لأن الإجبار لا يحقق المقصود، فالكاره للدين لا يمكن أن يتحقق منه الاتباع بالإكراه، لأن الإيمان مبني على الجانب القلبي الذي لا يستطيع أحد أن يتحكم في قلب غيره بالإكراه، إلا بالبيان وإقامة الحجة والدليل، واستثارة القناعة. وإن كنتم لا ترون فيما جئتكم به ما يستوجب تصديقكم به، فكذلك لا أستطيع إلزامكم بما تكرهونه من قبول للحق، بما يفيد أن حرصي شديد على تحقيق الحق لكم، بقبولكم له فيما لو كنت أستطيع ذلك، ولكن لا أستطيع إدخال الحق في قلوبكم، فألْزمكم به.

ومن جميل وجمال الأسلوب قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ فهو شرط قد انتفى منه الشك، وقد ثبتت فيه الحقيقة بالبينة والحجة والبرهان، بينما أورد الشك في فهمهم ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ مع استبعاد تحصيل مراده منهم بالإلزام الذي لا يملكه ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ مع بيان أن عدم إيمانهم هو بسبب كرههم للحق والإذعان له، أو لكونه من نوح عليه السلام، أو لكون الذين اتبعوه ليسوا من الملأ، وإنما هم ممن استضعفوهم وعابوا منزلتهم من بين قومهم. فهو أسلوب في غاية الدقة من كل وجه، ليظهر به عظمة كلام الله تعالى، ومما يؤكد أهمية الحكمة في الدعوة، وأهمية انتقاء الخطاب المناسب.

ومن جميل البيان أيضاً: المدح والثناء على ما جاء من عند الله تعالى ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ ففيه مدح: بأن ما جاءكم من عند الله تعالى واضح جلي، وأنه رحمة من الله تعالى، وبالتالي فإنه نعمة ورحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة، وأن ما جاء من عند الله تعالى خال من كل شدة ومشقة على من أخذ به. وهذا مدح وثناء على الدين، وتنزيه له من كل شر.

ومن دقائق البيان ذكر أن الرحمة بعد ذكر البينة، ونسبتها إلى الله تعالى، فالبينة هي الحجة والبرهان، ولكل نبي معجزات قد منحها الله تعالى له، والرحمة أشمل وأعم، فالبينة هي جزء من الرحمة التي يُفترض أن يقتنع بها الْمُنْذَرُون، فالبينة والرسول والنبوة والتشريع والهداية كلها رحمة من الله تعالى بعباده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبعدهم عن النار، ويُدخلهم جنات النعيم.

ويستمر نبي الله تعالى نوح عليه السلام في مخاطبة قومه، مبتدأ كلامه بياء النداء ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ فقد أعاد نوح عليه السلام مخاطبة قومه بالنداء، لما له من القوة في شد الانتباه، خاصة وقد ضم إليه انتسابه إليهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ ليؤكد لهم موقعه منهم، وموقعهم منه، وأنه يتكلم إليهم من واقع حرصه على سلامتهم ونجاتهم من عذاب الله تعالى، مما يفيد أهمية جميل وحُسن الخطاب، مع أنه نبي الله ورسوله إلى قومه، ولكنه تعامل معهم بالحلم والتواضع، وقد أسبق المناداة بواو العطف ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ ليفيد ارتباط واتصال النداء والتنبيه بما قبله من الخطاب، فإن الكلام متمم بعضه بعضاً.

ثم يتدرج معهم في بيان حقيقة ما يدعوهم إليه ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾ فإنني لا أطلب منكم مالاً لقاء توحيدكم لله تعالى، وصرف العبادة له عَزَّ وجل، فلست أسعى للتكثر من المال، ولا الاستطالة به عليكم، ولا رغبة في تحقيق الزعامة عليكم، لينفي بذلك ما قد يتوهمون عنه، وكذلك تبرئة لساحته ونزاهته عما قد يدور في خلجات نفوسهم، وفي هذا ما يفيد أهمية تخلية ذهن المتلقي والمدعو مما قد يكون عالقاً في ذهنه، فيمنعه من قبول الحق وهماً. واحترازاً من كل ما قد يجول في ذهن الْمُخَاطَب أو المدعو أو المتلقي، أو المنصوح. ثم حدد لهم مصدر الأجر الذي يرجوه ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ليتأكد بهذا القول منه عليه السلام أن المتكفل بالأجر هو الله تعالى، وأنه مغنيه عَزَّ وجل عنهم، فلا حاجة له في أموالهم، ولا شيئاً مما قد يظنونه، ويضمرونه. وفي هذا البيان قطع الريبة والشك من هذا الوجه، وبما قد يجعلهم يعيدون النظر فيما جاءهم به من البينات والحجج، ويقطع عنهم التفكير في نية التعالي عليهم، والتكسب من أموالهم.

ثم ينتقل بهم إلى ما طلبوا أو قد يطلبونه منه ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فنفى أن يحصل منه طرد من آمن معه عليه السلام، ليفيد أنه متوقع منهم أن يطلبوا ذلك أو قد طلبوه منه، وقد وصفهم وذكرهم برتبة الإيمان ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بياناً منه عليه السلام بتصديقهم بالله تعالى وبه وبما جاء به عليه الصلاة والسلام، وبرفعة شأن من تنتقصونهم، وتصفونهم بأنهم أراذلكم، لأنهم يترفعون عن مجالسة من هم أقل منهم مالاً وجاهاً وصنعة. وفيه كذلك بيان لمنزلتهم عنده، وعند ربهم تبارك وتعالى، وأن منهج الدين قائم على المساوات بين المسلمين الذين استسلموا لله تعالى، وكذلك حمايتهم، وتقديمهم على غيرهم مهما كانت رتبة غيرهم ومنزلتهم في أنفسهم، فالعبرة بالإيمان وليس بما يملك الإنسان من زخرف الدنيا وزينتها.

ثم يعلل لقومه علة عدم طرد من آمن معه، وذلك بتأكيد الإيمان بالله تعالى ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ فإنهم سيلقون ربهم تبارك وتعالى، ليستنتج منه، أنهم مؤمنون بربهم الذي أدعوكم لعبادته، وأنه سوف يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بسيئاته، وبالتالي سوف يحاسبني الله تعالى على طردي لهم إن طردتهم. ثم يخلص لهم بنتيجة مهمة جداً ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ فإنكم تجهلون ما أعرفه، ومع هذا لم يقل لهم قوماً جهالاً، بل قال ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ تجهلون حقيقة ما أدعوكم إليه، ليحثهم إلى التأمل والتفكر. ويظهر هنا أنهم يَرُدُّون عليه بالامتناع والتعالي، فخاطبهم ويرد عليهم بما يفيد استنكاره لهم، واستبعاد نفسه منهم حال بقائهم على ما هم عليه من الكفر ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ فاستبعد نفسه منهم، وتحول من مخاطبتهم بصفة الانتماء ﴿وَيَٰقَوۡمِ ﴾ إلى التباعد عنهم ﴿أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا ﴾ وفي هذا تدرج، مع استحثاث لهم على التأمل والتفكر، والبعد عن قولهم ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ فإنها مقولة منهم عوجاء أمام الحق الواضح البين.

ثم يعاود نداءهم عليه السلام، وإشعارهم بالانتماء إليهم ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فَيُجَلِّي ويوضح لهم المزيد من البيان عن علل امتناعه عن طردهم ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ ﴾ أي: شيء يمنع عني عذاب الله تعالى إن أنا قمت بطردهم، وقد آمنوا بتوحيد الله تعالى، مما يدل على أنهم يسعون جادين لطرد المؤمنين عنه، واستبعادهم من مجالسه، ومصاحبته لهم، كما يستشف من مناداته لهم بأداة النداء وبالانتماء إليهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ ﴾ قوة الحرص التي تدفعه للمزيد من البيان واللطف، فيردهم إلى توحيد الله تعالى، وإلى أن المآل إلى الله تعالى، وأن هناك حساب ومقاضاة، وجزاء ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ ﴾ فينفي أن أحداً يستطيع أن ينصر ظالماً عند الله تعالى، وأورد كلامه لهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ ﴾ فمن هو الذي يستطيع أن يمنع عني عذاب الله تعالى إن أنا طردتهم وأبعدتهم عن مصاحبتي ومجلسي، فإنني أخاف عذاب الله تعالى، وفي هذا تعريض بالخوف من عقاب الله تعالى، بأن عذابه واقع بمن عصاه، فلا تعصوا ربكم تبارك وتعالى. فإن طردهم ظلم، وأن الله تعالى لا يرضى الظلم، ويحاسب من أوقعه وأحدثه. ثم يحيلهم إلى التفكر والتذكر وعدم الاستعجال ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهل لكم أن تتأملوا حال ما أنتم عليه، وحال ما هم عليه، وأنتم مستمرون على تجاهل ما جئتكم

وذكرتكم به. فجمعت جملة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ التأمل في أحوال كثيرة، ومن أبرزها: ما جئتكم به من البينات، وأحوال المؤمنين بعد إيمانهم، وأحوالكم فيما أنتم عليه.

ثم ينتقل بهم إلى وصف أمره وشأنه وقدراته، وعدم استكباره عليهم بما جاءهم به، وأنه لم يقصد شيئاً من التعالي، وانتزاع مكانتهم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فنفى عن نفسه الادعاء بما ليس له من الملك والتصرف ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فليس عندي خزائن أرزاق الله تعالى، وفي هذا استدفاع لما يمكن أن يكون منهم من الوهم، فيطلبوا منه المال، لقوله لهم سابقاً ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فربما يأتي في بالهم: بما أنك مستغني عن أموالنا فلا تطلبها، ومستغني بأجرك من الله تعالى فأعطنا من خزائنه التي استغنيت بها عنا. مما يفيد أهمية معرفة الاحتمالات، وما يترتب عليها، وإزالة ما يتوقعه الداعية والناصح والمرشد والمعلم ممن يعلمهم ويدعوهم وينصحهم، فيزيل الأوهام بأسلوب استباقي. وهذا مما كَمَّلَ اللهُ تعالى به المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم نفى عن نفسه علم الغيب ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ولا أزعم أنني أعلم ما غَيَّبَهُ اللهُ تعالى من الغيب، فينفي بذلك ما يمكن أن يكون منهم من أسئلة عن أمور غيبية، كنزول المطر، أو مجيء العذاب، ونحو ذلك، وكذلك ليبين لهم أنه مثلهم بشر، لا يزيد عنهم إلا بما كلفه الله تعالى به من الرسالة، فيزيل عنهم خصوصية لا يَدَّعِيها لنفسه. وكذلك ينفي عن شخصيته الادعاء بأنه مختلف عن بشريتهم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فلست مَلَكَاً، وإنما أنا بشر مثلكم، فلا أدعي لنفسي خصوصية عنكم، غير كوني رسول الله تعالى إليكم، فلست متعالياً عليكم بادعاء كاذب، ليس لي فيه حقيقة ولا حق.

ثم ينتقل إلى نفي امتناع تحصيل الخير لمن آمن من قومه ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ ولا أحكم على من تحتقرونهم وتزدرونهم من الذين آمنوا معي بامتناع الخير عنهم، فقد يمنحهم الله تعالى خيراً كثيراً، فلا أقول لكم بأن الله تعالى سيمنع عنهم خيراته وبركاته بسبب قلة ما لديهم من زينة الدنيا، واحتقاركم لهم. ومن دقة البيان أن جاء لفظ ﴿خَيْرًا﴾ نكرة، ليستوعب جميع أنواع الخير، سواء من حيث الكثرة، أو النوع: في المال، والأرزاق، والجاه، والتمكين، والقوة، وغيرها من الخير الذي لا يعلمه إلا

الله تبارك وتعالى. ثم يوضح لهم علة وسبب عدم علمه بما يمكن أن يحققه الله تعالى لهم من الخير ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فليس لي أن أطلع على نفوسهم فأقطع عليهم بشيء، وكذلك ليس لكم من أمرهم شيء، فتقطعوا وتجزموا بأنهم أراذلكم، بما يفيد التلميح لهم بأن وصفكم لهم: بأنهم أراذلكم، لا يعني صحة حكمكم، فإن الله تعالى أعلم بما في أنفسهم من الخير، فإن حكمتُ على ما بدواخل أنفسهم، أكون قد دخلت في دائرة الظالمين ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي ذلك إشارة إلى ما حكموا عليهم بأنهم الأراذل، وبأن حكمهم كان خارجاً عن استقامة الحق في الحكم، وأنه نوع من الظلم لهم، لأنكم لا تعرفون ما في أنفسهم من الخير، فليس الخير مرهون بما يملك الإنسان من زينة الدنيا، بل بما يملك في سريرته من الخير الذي يقوده إلى لعمل الصالح. مما يبين فصاحة الأنبياء، وحكمتهم في دعوة الناس، فيصدحون بالحق المبين، وبأسلوب لا ينفر الخصم، ولا يستثير عداوته، وكرهه لمن يدعوه للخير. فأثبت لهم أن احتقاركم لهم لا يُبطل ولا يمنع تحقق الخير لهم، بما يفيد أن الله تعالى قد يُعلي شأنهم ومراتبهم فيكونوا أسياداً بطاعتهم لله تعالى. وهنا قد ألمح لهم نبي الله عَزَّ وجل: أن الله تعالى سيعطيهم من الخير ما يرفع مكانتهم ومنزلتهم، ولكن بأسلوب نفي امتناع الخير عنهم، وهذا ألطف لقلوبهم، وأطمع لهم في التجاوب معه، بخلاف لو قال لهم: سترون ما سيكون عليه هؤلاء الذين تحتقرونهم من الخير الذي يعطيه الله تعالى للمؤمنين الذين أطاعوه، فإنه قد يستثير عنادهم. مما يبين أهمية الحكمة في القول عند التعامل، بما يحقق الهدف، إذ ليس الهدف هو الاستعلاء والانتصار عليهم، بل الهدف أن يدخلوا في الإسلام، وينجوا من عذاب الله تعالى. فالهدف نصرتهم على باطلهم وما في نفوسهم من الشر. مما يبين أثر الهدف على نوع السلوك والتعامل.

وفي قول نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما يبين أن ما تنطوي عليه النفوس أمر عظيم عند الله تعالى، فإن الظاهر والمظاهر لا تغني عن حقيقة جوهر البواطن، من الإخلاص لله تعالى، ومحبته، والخوف منه، والرغبة والرهبة والرجاء الذي في القلوب لله تعالى. فالحكم في علاقة العبد بربه لا تقتصر على ظاهر العمل، بل في القلوب دقائق العلاقة التي لا يعلمها إلا الله تعالى. كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (رُبَّ أشعثَ مدفُوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره)[1]

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢٠٢٤/٤) برقم (٢٦٢٢)

إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى برد كفار قوم نوح عليه السلام على نبيهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فقد بدأوا خطابهم بمناداته عليه السلام بياء النداء ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ ﴾ بما يفيد ترجيهم أن يقلع عن مجادلتهم ﴿ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ فهذا إعلان منهم بما يبين أن نوح عليه السلام كان صابراً عليهم، ويحاول معهم بالبيان والحجج، حتى أعلنوا تذمرهم وتضجرهم، فسأموا من مجادلته لهم، فوصفوه بالمكثر عليهم في جداله لهم ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ فقد بالغة في جدالنا، وعرض الحجج والبراهين، وقد كان من حرص نوح على إسلام قومه تكرار نصحه عليهم ليلاً ونهارا، كما جاء في سورة نوح ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾ فأرادوا تيئيسه من محاولاته، لثنيه عن مراده، فلسان حالهم: لا تحاول معنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ فطلبوا أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب، لأن نوح عليه الصلاة والسلام ينذرهم بتخوفه عليهم من العذاب، كما هو في مطلع وبداية مجادلته لهم ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ فربطوا صِدْقَهُ بما طلبوا من العذاب الذي يعدهم ويخوفهم به ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فإن كنت صادقاً فيما تتوعدنا به من العذاب فآتنا به. مما يفيد أنهم لم يعد لديهم القدرة على دفع حجج نوح عليه الصلاة والسلام، فضاقت مسالك الرد عليه، لأن نوح عليه السلام أغلق أمامهم بالبراهين والحجج كل ما يمكن أن يصدر منهم، كما اتضح وتبين من عرض حججه فيما سبق. كما أن في طلبهم أن يأتيهم بالعذاب، ما يبين مكابرتهم، وقوة دفعهم للحق، وأن الذي يمنعهم من الإيمان هو الكبر في النفوس، مما يبين مخاطر الكبر في صد الحق، إلى درجة قبول العذاب وطلبه.

فأجاب نوح عليه الصلاة والسلام، على الذين كفروا من قومه عند سؤالهم أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فقد أرجع أمر العذاب في توقيته لله تعالى، بل حصر البيان بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ ليفيد حصرية موعده ونوعه وعظمته لله تعالى، وأكده أنه تحت مشيئته عَزَّ وجل، فليس لي في توقيته ونوعه رأي ولا إرادة ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ ثم بين ضعفهم أمام عذاب الله عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فليس شأن عذابكم بأمر مُعجز. فإنما أمركم سهل على الله تعالى،

فلن تفوتوا عَمَّا أراده الله تعالى بكم من عذاب، فلن تستطيعوا أن تفلتوا منه أو تتقوا عذاب ربكم بأي وسيلة. فإن عذاب الله تعالى إذا جاء تحقق فيكم، بما شاء سبحانه وتعالى.

ثم أتبع ذلك بتفويض الأمر لله تعالى في شأنهم ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فلن تنتفعوا بمزيد نصحي لكم إن أراد الله تعالى غوايتكم جزاء امتناعكم ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ فسمى جميع ما كان يخاطبهم ويحاجهم به نصح ﴿ نُصْحِيٓ ﴾ ولكن حسب فهمهم أنه جدال، كما قالوا في سابق الآيات الكريمة ﴿ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ فسموا النصح جدالاً، وأحالوا المفاهيم على غير وجهها، مما يفيد ويبين أن تغيير المفاهيم في الوصف لا تزول به الحقيقة، فقد يسمي المنصوح النصيحة بغير اسمها، وكذلك الناس قد يسمون ما يكرهون وما لا يحبون من الخير بغير اسمه الحقيقي، فليس كل مسمى يَدَّعِيه أهل الباطل يكون حقيقة عن الشيء إلا ما كان مطابقاً له أصلاً. والجدال لفظ عام يشمل الخير والشر. ولكن دلت كراهيتهم للحق على أنهم أرادوا بالجدال وصف الشر.

وقول نوح عليه السلام ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ يبين أنه مهما بالغت في نصحكم إن أردت أن أنفعكم بما يحقق لكم الخير، وتتقون به العذاب، فلن أحصل على مرادي منكم مع شدة تمنعكم وامتناعكم عن قبول الحق ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ وكان الله تعالى قد أراد عقابكم على تماديكم في الكفر بأن يغويكم، فيضلكم عن سبيل الرشاد، ليخذلكم فيتحقق فيكم العذاب، فلن تنتفعوا بالمزيد من النصح بعد هذا النصح، حتى أزيد عليكم فيه، مما يؤكد أن نبي الله تعالى نوح عليه الصلاة والسلام قد بذل كل جهده في دعوتهم للحق. وكذلك يفيد النص الكريم أن الله تعالى قد يعاقب المتمادي في جحوده بجنس نوعه، فيطبع على قلبه. بما يوضح أهمية البعد عن التمادي في المعصية، فقد يلتصق العبد بالمعصية، فتلتصق بصاحبها عقوبة من الله تعالى له، فتجعله لا ينفك عنها.

ثم يُعيد نوح عليه السلام الأمر إلى لله تعالى ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فهو ربكم المالك لكم، والمتصرف بما يشاء فيكم، وأن مرجعكم إليه سبحانه وتعالى، فيحاسبكم ويجازيكم، بما يفيد: أن الحساب والجزاء، وإيقاع العذاب، ليس لي فيه شأن أبداً، فإن الأمر كله لله تعالى.

وأثناء عرض قصة نوح عليه السلام مع قومه، ينتقل السياق الكريم إلى تحقيق ومعالجة مسألة القول بافتراء القرآن الكريم، وفي هذا القطع والانتقال ما يؤكد به أهمية استثمار حدث قصة نوح، وكذلك استثارة

الذهن لأمر مهم أثناء متابعته لقصة نوح عليه السلام، وكذلك لبيان عظيم هذا الافتراء، وأهمية الرد على المفترين، لأنه لا ينقطع سياق الكلام إلى شيء آخر إلا لأمر عظيم، قد تتطلب الأمر عدم تأخيره. وكذلك لإظهار التشابه بين افتراء قوم نوح عليه الصلاة والسلام، وبين افتراء المفترين على نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في شأن القرآن العظيم. فقال عزَّ وجل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكداً لها، ومقرراً لها، يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا، وافتعله من عنده ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أي: فإثم ذلك عليَّ ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله تعالى من العقوبة لمن كذب عليه[١] وورد النص الكريم بصيغة الاستفهام الاستنكاري لقوة الحجة التي لا ينكرها إلا باغ وجاحد، بتعمد الإنكار والتكذيب، فليس بعد حجة القرآن الكريم حجة. وفي قوله.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل إنها حكاية عن نوح، وما قاله لقومه، وقيل هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة، والأول أولى[٢] ولا يمنع صحة كلا الرأيين، لأنها تعالج نفس الموقف، فجاء السياق ليشمل الدلالتين، وهذا بلا شك أنه من غزارة الإعجاز البياني، فعلى أي اعتبار اعتبرته جاز وتوافق معه، وذلك لتوافقها في نفس الموقف والدلالة. وليتبين قوة التماثل بين ما يوجه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما يوجه من كان قبله، وأولهم نوح عليه الصلاة والسلام، فلكل دعوة نبوية من يكذب بها، ويكفر بها وينكر صوابها، وقوة حجتها، فليست هي الواقعة الأولى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وجاء البيان الكريم بصيغة الاستفهام الاستنكاري، لما تضمنه من الحجة عليهم، أيقولون اختلق واخترع هذا القول ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ثم جاء الرد بالحكمة التي تناسب الموقف ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ فإن كنت قد افتريته فإن جُرم وجزاء ذلك الاختلاق والاختراع واقع وقائم عليَّ، فلا ينوبكم منه شيء، وبالمقابل ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ وأنا لا ينالني من إجرام إنكاركم شيء، ولا من شرككم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٦٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٩٦-٤٩٧)

شيء، بل أثبت بهذا القول أمرين: الأول: البراءة من تكذيبهم لِمَا جاء به، والبراءة من كفرهم وشركهم؟ والأمر الثاني: إثبات أن تكذيبهم جُرم عظيم، وأيضاً ما هم عليه من الشرك أيضاً جرم عظيم.

ثم يُخبر الله تعالى نبيه نوح بسابق علمه لما سيكون عليه هؤلاء الكفار من قومه ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ففيه إبلاغ نوح عليه السلام بسابق علمه سبحانه وتعالى، بأنه لن يؤمن أحد ممن عصوك، فكفروا بالله تعالى ولم يطيعوك، ففيه قطع الرجاء من إيمان غير الذين آمنوا. وهذا بيان على علم الله تعالى بما سيكون عليه العباد قبل أن يكونوا عليه من الأمر. وفي هذا إشارة إلى فصل الخطاب في أمرهم. ثم يوجه سبحانه وتعالى نبيه نوح عليه السلام إلى ما يدفع عنه الحزن، لأن هذا الأمر شديد عليه، وذلك لحرصه عليه الصلاة والسلام على اسلامهم، فيأمره الله تعالى بما يقابل هذا الشأن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن، ولا تَغْتَم وتَهْتَم بما كانوا يفعلون من الإصرار على الكفر، واعتراضهم على نصحك، واستعجالهم بطلب العذاب، وهو قولهم فيما سبق ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ
وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه نوح عليه الصلاة والسلام بالاستعداد لما سيحدث، والأخذ بأسباب النجاة ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ فأمره سبحانه وتعالى بصناعة السفينة، لينجيه الله تعالى ومن معه من الغرق الذي سيصيب القوم الكافرين. والله تعالى قادر على أن ينجيه من غير سفينة، ولكن يُمْضِي الله تعالى سننه، من الأخذ بالأسباب، ومنها أسباب النجاة، ليتبين أن منهج الله تعالى في عباده وملكوته قائم وفق نواميس وقوانين الأسباب، فلا يطلب المسلم النجاة من غير الأخذ بأسبابها، ولا يطلب الرزق من غير الأخذ بالأسباب، ثم إن صُنع الفلك كان بأمرين مهمين: الأول: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي: بمرأى من الله تعالى وعلمه وعنايته وحفظه. والأمر الثاني: ﴿ وَوَحۡيِنَا ﴾ أي تعليمنا إياك كيف تصنعها. وهذه من دقة عناية الله تعالى برسوله عليه الصلاة والسلام، وأنه هو الهادي إلى مخترعات الإنسان عموماً، ومنها مخترعات اليوم، وما يحدث في المستقبل، من تهيئة سبل تعلمها، والهداية إلى أسباب صناعتها. فكل خير يُنسب إلى الله تعالى.

ثم ينهى اللهُ تعالى نبيه نوح عليه السلام عن مخاطبته في الذين كفروا ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ نقل ابن الجوزي رحمه الله دلالتان في معناها: الأولى: لا تسألني الصفح عنهم، والثانية: لا تخاطبني في إمهالهم. وإنما نُهِي عَنِ الخطاب في ذلك، صيانة له عن سؤال لا يُجاب فيه له[1] ويفهم من هذا أن دعاء نوح على قومه كما في سورة نوح ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ ﴾ أنه كان بعد نهي الله تعالى عن مخاطبته في شأنهم، فعرف أنهم لن يؤمنوا، وبالتالي فلا نجاة لهم، ولا سبيل لمزيد دعوتهم، وذلك لعلم الله تعالى بأنهم لن يؤمنوا، فدعا عليهم بذلك الدعاء. ثم أكد الله تعالى بأن عذابهم سيكون بإغراقهم في الماء ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ وفي هذا بيان لنوع العذاب الذي سيصيبهم به سبحانه وتعالى، وكذلك فيه بيان لسبب بناء السفينة. وقد أكد الله تعالى غرقهم بنون التوكيد ﴿إِنَّهُم﴾ أي: لا نجاة لهم، ولا عدول عن ذلك.

بعد أن أمر الله تعالى نبيه نوح عليه السلام بتشييد السفينة، يخبر عَزَّ وجل عن حال وشأن نوح عليه السلام في أمرها ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾ فهذا البيان عطف على ما أمره الله تعالى به ﴿ وَٱصۡنَعِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٨٢)

ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ وقد أخبر الله تعالى عن استجابة نوح عليه السلام بصيغة الفعل المضارع ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ ليظهر حاله عليه السلام أثناء صنع السفينة، وبيان ما كان يجري من قومه معه في تلك الأثناء ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ فكان قومه يسخرون من اشتغاله بصنع السفينة. وجملة ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ تبين وتوضح تكرار السخرية منهم على نوح عليه السلام، وأن الملأ منهم يمرون عليه في تعاقب، بعضهم بعد بعض، فيتأملون فيما يقوم به نوح من أعمال النجارة، لبناء السفينة، ويسخرون من فعله، قال الطبري رحمه الله تعالى: هزئوا من نوح، ويقولون له: أتحولت نجاراً بعد النبوة، وتعمل السفينة في البر[1] قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فقد رأوه يبني السفينة، وما رأوا سفينة قط، فكانوا يسخرون ويقولون: صرت بعد النبوة نجاراً. وقال مقاتل رحمه الله تعالى: أنهم قالوا: ما تصنع؟ فقال: أبني بيتاً يمشي على الماء، فسخروا من قوله[2]

فيرد عليهم نوح عليه السلام بما يناسب سخريتهم ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ فإن كنتم تسخرون من صنع السفينة، ومن المؤمنين، وتوحيدهم لله تعالى، فإننا نسخر من كفركم وعدم استجابتكم لله تعالى، وغفلتكم، وتجاهلكم للحق، وعدم خوفكم مما وعدكم الله تعالى به من العذاب، بما يدل على سفه العقول، وعدم رشدها. وبالرغم من أن لفظ السخرية يحمل دلالة التعجب، ولكن بطريقة الاستهزاء والاستنكار، إلا أن تعجب نوح عليه السلام لم يكن استهزاء، وإنما كان على حقيقته، لأن سخريته منهم على وجه الصراحة الحقيقية، لرفضهم الحق الثابت بالبرهان.

ومن جميل منطق نوح عليه السلام أنه بنى سخريته على سخريتهم، بحيث لو لم تسخروا منا لما سخرنا منكم ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ فمنطلق السخرية كان منكم، فرددنا عليكم بمثله لفظاً، وأما حقيقة فإن أمركم محل سخرية حقيقة، لإنكاركم الحق الواضح بالبراهين والحجج. بما يفيد أيضاً أنه لم يتجاوز الحد في سخريته بهم، وهذا من دقة وبراعة الوصف في القرآن الكريم، وإعجاز تراكيب ألفاظه وقوة بيانه.

ومن حرص نبي الله نوح عليه السلام على قومه، أنه بالرغم من سخريتهم منه إلا أنه مازال يكرر عليهم التذكير بالعذاب مرة أخرى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٣/١٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٤/٤)

ففي الوقت الذي يسخرون منه، يعظهم بأسلوب التحذير والوعيد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ فحين يقع العذاب ستعرفون وتدركون حقيقة الأمر الذي يكشف لكم المستحق للعذاب. فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية، وأحق بالعذاب، ومن هو خير عاقبة. فهناك أمران في العذاب: الأول: ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وهو العذاب الذي يُذله ويهينه، وهو الغرق، وهذا محله الدنيا. والأمر الثاني: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وهو عذاب الآخرة المقيم عليهم من غير انقطاع عنهم. أي: العذاب المقيمين فيه، فلا ينفك عنهم أبداً. وهو تأكيد يبرهن ويُوَثّق به أن من آمن معه على الحق، وأن الكافرين واقعون في العذاب لا محالة. وهذا يلزم منهم إعادة التفكير والتأمل فيما جاءهم به. ولكن المستكبر الذي استقوى فيه الاستكبار، لا يتنازل عن كبريائه مع علمه ويقينه بخطأ ما هو عليه.

ثم يخبر الله تعالى بالحال قبل وقوع الطوفان الذي يمثل عذاب الله تعالى بالقوم الكافرين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فيخبر الله عَزَّ وجل أنه حتى إذا جاء أمر الله تعالى بعذابهم وإهلاكهم كما وعد بذلك سبحانه وتعالى، فإن هناك علامة حددها عَزَّ وجل لنوح عليه السلام، وهي: فوران التنور ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي: إذا رأيت الماء قد علا وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا قول جمهور السلف، وعلماء الخلف[١] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال: أن التنور هو الذي يختبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يُوجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر... وذلك أن جَلَّ ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به. قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي واعدنا نوح أن نعذبهم به، وفار التنور الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا بيننا وبينه، لهلاك قومه[٢] وهي علامة يعلم نوح بها قرب ما وعد الله تعالى به من العذاب. والذي يظهر من الأقوال بأن الذي ذكره الطبري رحمه الله تعالى ورجحه هو عند ظهور علامة بدء الحمل من كل زوجين اثنين في السفينة، واجتماع المؤمنين لاعتلاء السفينة، وابتداء ركوبهم لها، لأنه الزمن الذي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٦١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٤٠٦-٤٠٧)

يمكن أن تكون فيها حركة الناس ممكنة، حيث نادى نوح ابنه كما سيأتي لاحقاً، ويكون قول ابن كثير عندما هاجت المياه على الأرض، فيستعصي على الكافرين الحركة، والخروج عند معاينة بداية حلول الغرق.

فعند ظهور هذه العلامة التي هي فوران التنور يُوَجِّهُ اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أمرنا نوح بأن يحمل في السفينة من جميع أنواع المخلوقات، ويكون ذلك من كل زوجين اثنين. والزوج هو الشيء الذي يكون له ثانياً، رجل وامرأة، ذكر وأنثى، ويدخل في ذلك الحيوان والنبات، وهكذا. وهي الحالة التي يمكن فيها حمل السفينة من كل زوجين اثنين، وجملة ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ تفيد تعميم الحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، دون استثناء. والله تعالى قادر على أن يُبقي من المخلوقات ما يشاء، ولكن الله تعالى يُحدث الأمور وفق السنن التي سَنَّها سبحانه وتعالى في الحياة والبقاء والتكاثر والتناسل، ليعلم ويتعلم الإنسان أهمية العمل وفق سنن الله تعالى، فيطلب الخير بالسعي نحوه، ويدفع الشر بأسباب دفعه، وأن يجمع بين الدعاء وبين الأخذ بالأسباب.

ويأمر الله تعالى نوحاً عليه السلام أن يحمل أهله معه ومن آمن ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن. قال الضحاك: وهم امرأته، وابنه كنعان[1] ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ واحمل كذلك من آمن من غير أهلك، ثم وصفهم سبحانه وتعالى من حيث العدد ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فمع طول مدة مكثه بين قومه وهو يدعوهم إلى الإيمان، إلا أنه لم يؤمن منهم إلا القليل، فقد لبث فيهم كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ مما يفيد أن ليس على الداعي إلى الله تعالى إلا البلاغ، والأخذ بالأسباب، وإنما التوفيق بيد الله تعالى، وأن الأمور ليست بالكثرة المادية، ولا بالمدة الزمنية. وكذلك ليست بالحرص، فقد كان من حرص نوح على إسلام قومه أنه كان يدعوهم ليلاً ونهارا، وسراً وجهاراً.

ثم يخبر الله تعالى بما قاله نوح عليه السلام لمن سيركبون معه ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقد وَجَّه نبي الله نوح عليه السلام الذين معه من المؤمنين أن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٦/٤)

يعتلوا السفينة، قائلين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: بسم الله حين يركبون، وحين يُجْرون ويُرسُون[1] ثم أكد لهم حقيقة عظيمة، تحثهم على لزوم التسمية ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى يغفر ويستر ويمحو ما سبق من الذنوب، وكذلك رحيم، أي كثير الرحمة، فإنه رحيم بعباده المؤمنين، ففي ذلك تطمين لهم، بأن الله عَزَّ وجل ينجيهم برحمته مما هو كائن بالكافرين من العذاب، وأكد ذلك بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ فتأكدوا من رحمة الله تعالى وتوكلوا عليه، مستعينين به حين تركبون، وحين تجري بكم، وحين ترسي بكم.

وهذا يبين العلاقة بين السبب الذي هو ركوب السفينة، وبين الاستعانة بالله بذكره، وبين إرادة الله تعالى وعونه ولطفه وإنجائه للعبد. فالمرتكزات قائمة على الأخذ بالأسباب، وعلى ذكر الله تعالى وطاعته، والتوكل عليه، فإنه هو المتحكم في الأسباب، وهو الذي يُنجي من كل معضلة، والحافظ من كل سوء وشر. وفي هذا دلالة على فضل التسمية، ومنزلتها وأثرها وأهميتها. ومن جليل الفوائد أن قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ دل على بيان الواقع والمستقبل، فالواقع دل عليه قوله تعالى ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ والمستقبل الذي ستكون عليه السفينة، دل عليه قوله تعالى ﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وهو كيف سيكون حالها أثناء الإبحار، بأنها تجري، ثم أن مآلها إلى النجاة بالرسو والوقوف. فدلت على ثلاثة مراحل، الأول: حال الركوب، والثاني: أثناء الطُّوفَان، والثالث: تحقق النجاة بوقوف السفينة، برحمة الله تعالى.[2] بأن ترسو وتقف

ثم يَصِفُ اللهُ تعالى حالهم في السفينة وهي تجري بهم بين الأمواج ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فوصف الله تبارك وتعلى سير السفينة على البحر بأنها تسير جرياً ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ فكانت سريعة السير، بما يدل على قوة حركة الرياح، وقوة حركة الماء، ويؤكد ذلك ارتفاع الأمواج وعلوها الشاهق، قال تعالى ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ فكانت السفينة تجري بهم بين مرتفعات من الأمواج، مما يدل على قوة هيجان الطوفان، الذي بلغ في قوته وحجم أمواجه أنها كحجم الجبال سماكة وارتفاعاً، مما يبين عظيم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٦/١٢)

(٢) قاله ابني عبد الرحمن، وحرره خالد.

قدرة الله تعالى، وبالرغم من ذلك فإن السفينة تمشي بين تلك الأمواج العاتية الضخمة كما وصفها ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ مما يبين أن الله تعالى إذا أراد نجاة أحد أو جماعة من بلاء عظيم، فإنه ينجيه من بين من أراد لهم البلاء أو العذاب، فلا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، فهو العزيز الحميد.

ثم ذكر الله تعالى نداء نوح لابنه ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فنداؤه لابنه يكون قبل حركة السفينة، لأنه يتعذر ذلك بعد جريانها في موج كالجبال. ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ ما يدل على أنه عزل نفسه، وانفرد بها عن أبيه، لأنه لم يؤمن، فيقول له نوح عليه السلام ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فناداه باسم الأبوة ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ عطفاً ورحمة به، واستمالة لقلبه، بأن يؤمن ويركب، وأن لا يكون مع الفئة الكافرة بكفره، لأنه اشترط على ركوبه الإيمان، والتخلي عن الكفر ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فنهيه لابنه من أن يبقى مع الكافرين هو حث له على الإيمان، لأن الله تعالى أمر نوح عليه السلام فيما سبق بأن يحمل أهله معه إلا من سبق عليه القول، فأصبح من أهل العذاب، لعدم إيمانه ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ وفي مناداته ذلك الحين ما يدل على أنه كان قبل أن يشعر الناس بأن الغرق حاصل. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أول فوران التنور[1]

فيرد الابن الكافر ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ اعتقاداً أن الماء لن يعلو الجبال، فيعتصم بالجبال من الغرق، فيكون بذلك قد عصم ومنع نفسه من عذاب الله تعالى في تقديره البشري، ولكن قدرة الله تعالى أعظم هولاً مما يعرفه ويراه من سنن الله تعالى في الكون، فإذا كان من سنن الله تعالى أن لا تعلوا مياه وسيول الأرض جبالها، فإن أمر الله تعالى إذا جاء تجاوز به سبحانه وتعالى ما يشاء.

ولمعرفة نوح بربه تبارك وتعالى خاطب ابنه ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ فلن يعصم أحداً من أمر الله تعالى مانع ولا عاصم إلا من خصهم الله تعالى برحمته، فينجيهم سبحانه وتعالى، فالمعصومون من العذاب هم مرحومون برحمة الله تعالى. مما يبين أن الله تعالى إذا أراد إهلاك أو نجاة أحد سَهَّل له ما يحقق قضاءه وقدره عَزَّ وجل، فلا يعتقد أحد أنه ناج من الله تعالى بسبب من الأسباب، وإذا أراد الله تعالى لأحد خيراً نجاه سبحانه وتعالى برحمته ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ وهذا يبين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٩٩)

سرعة هيجان الماء ونزوله وارتفاعه عن الأرض، وبصورة متسارعة مفجعة، حتى أن الموج حال بين نوح وابنه وهو يتحدث إليه من شدة قوته وسرعته. بل ومن قوة الطوفان وارتفاع أمواجه أنه أودى به في الغرق، مما يبين أن الله تعالى قد أهلكهم جميعاً بعذابه. فإنها صورة بالغة القوة في العذاب وفي النجاة لنوح عليه السلام ومن معه.

ومن الإعجاز البياني: سمو بلاغته التي أوجز فيها توصيف الصورة والمشهد بأوجز وأبلغ عبارة، وأدقها لفظاً، وأكملها بياناً. حتى أن كلمة ﴿ وَحَالَ ﴾ عَبَّرت عن صورة انقطاع الكلام فجأة بين نبي الله تعالى وبين ابنه، فعبَّرت عن سرعة صورة أحداث الموقف بأدق عباراته وحالاته. كما أن جملة ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ ﴾ تدل على سرعة الموج الذي قطع الكلام بينهم فجأة، مع قطع المشاهدة إن كانت حاصلة ذلك الوقت. فهي صورة للمفارقة الحتمية بين الإيمان والكفر.

ثم يبين الله تعالى ختام أمر الطوفان، وكيف أنهاه الله تعالى بالأمر المطاع ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد جاء الأمر للأرض وللسماء في وقت واحد، وخاطبها سبحانه وتعالى بياء النداء، وكذلك بفعل الأمر ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى ﴾ وللسماء ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ وبدأ تبارك وتعالى بالأرض ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ فأمر الله تعالى الأرض أن تبلع ما عليها من الماء، فَتُدْخِلُه في جوفها بطريقة البلع ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى ﴾ وليس بطريقة الامتصاص، وفي اختيار الأمر بالبلع، ما يفيد سرعة دخول الماء في جوف الأرض، لأن البلع يعني ادخال الشيء في الجوف دون تحريكه ومعالجته، ليفيد معنى السرعة أثناء إدخال الماء في جوف الأرض. وهذه من دقة أمره وبيانه سبحانه وتعالى، ودلالة على عظيم قدرته، وعظمة أمره عَزَّ وجل، فلم يكن زوال ما عليها من الماء بالتدرج، من خلال التجفيف والتبخر بحرارة الشمس، وامتصاص الأرض لمائها بحسب حاجتها وجفاف جوفها، بل كان الأمر للأرض أمراً يفيد السرعة بابتلاع الماء لبطنها ابتلاعاً.

وأمر سبحانه وتعالى السماء أمراً بليغاً عظيماً، ابتدأ بياء النداء، وبفعل الأمر ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ فأمر عَزَّ وجل السماء أن تمسك عن إنزال الماء، وحال انتهى الطوفان من الأرض ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أي: ذهب في الأرض، وفي اللغة: غاض الماء أي ذهب في الأرض[1] ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وتم الفراغ من هذا الشأن، فأحكم الله تعالى إهلاك الكافرين، ونجى الله تعالى برحمته نبيه نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين

(١) الفيومي، المصباح المنير (٢/٦٢٩)

﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ أي: استقرت السفينة على جبل الجودي ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: بعداً وهلاكاً للظالمين من رحمة الله تعالى، فإنهم مطرودون من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة. وهي قاعدة ثابتة، ليستفيد منها كل أحد من العباد، بأن رحمة الله تعالى لا ينالها الكافرون. وجاء البيان عنهم بأسلوب الطرد ﴿ بُعْدًا ﴾ لتفيد المنع من رحمة الله تعالى، بالطرد والإبعاد عن رحمته عَزَّ وجل، والهلاك لهم بعذاب الله جَلَّ ثناؤه، فهي موعظة بليغة البيان والمعنى، ومؤثرة في النفوس لمن تأملها.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾

يخبر الله تعالى بما كان من نوح عليه السلام بعد نجاة السفينة ومن عليها بفضل الله تعالى ورحمته ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فأول ما كان من نوح هو التوجه إلى الله تعالى بالنداء ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ ليفيد الاستجداء، والتوسل إلى الله تعالى باسمه الدال على الربوبية ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ ليفيد رفعة ومنزلة دلالة نداء الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ فبدأ استجداءه ببيان موقع ابنه منه ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ معللا سؤاله بهذه الصلة التي تعبر عن قوة الشفقة، وكأن لسان حاله: لا تُؤاخذني يا الله بسؤالي هذا ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ بما يفيد الشفقة، وحرارة عاطفة الأبوة، مؤكداً بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ أن ابنه فرد من أهله، وأهل الرجل هم: من يجمعه وإياهم نسب، ومنها زوجته وأولاده ومن يرثه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يُخْلَف، فكيف غرق وأنت

أحكم الحاكمين؟[١] وهذا يدل على عظمة شفقة الوالدين على أولادهم، وأن أولادهم يقعون منهم موقع الجزء من الكل، ولذلك فإن حقوقهم على أولادهم عظيمة. فبعد أن يئس نوح عليه السلام من نجاة ابنه في الدنيا، سأل الله تعالى عن نجاته في الآخرة، فيكون سؤاله بعد أن علم أنه لن ولم ينجوا أحد من الطوفان غير الذي في السفينة، فيكون سؤاله عن حال ابنه في الآخرة، بأن يغفر الله تعالى له.

ويستجدي نوح ربه بالثناء عليه بما هو أهله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فأنت خير من يحكم في كل شيء، ومن ذلك حال ابنه. فيستسلم ويفوض الحكم لله تعالى، وأنه راضي بما يحكم الله تعالى به، فسؤاله سؤال طمع في ربه تبارك وتعالى أن يغفر لابنه. ومن فوائد البيان أن أسلوب نوح عليه السلام في طلبه كان مليئاً بالتأدب مع ربه تبارك وتعالى، فلم يصرح في طلبه بمراده، فيقول اغفر لابني فإن ابني من أهلي، بل استخدم أسلوب التعريض والإيماء في طلبه ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فقد عرض منزلة ابنه منه، والتي تبين شفقته عليه، وضم ابنه لما وعده ربه من النجاة، وأثنى على الله تعالى في حكمه، وبما يحكم به. فينادي اللهُ عَزَّ وجل نوحاً عليه الصلاة والسلام، بجواب على سؤاله ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ فقطع سبحانه وتعالى علاقة النسب، بما يفيد أن الكفر يقطع صلة نسب المسلم بالكافر، فنفى أن يكون من أهل نوح، فهو كافر، والكافر ليس من أهل دينك، وليس ممن وعدتك بنجاته. فما وعدتك به هو نجاة من آمن من أهلك، وولدك ليس ممن وعدتك بنجاته، فهو ممن سبق عليه القول لكفره بالله تعالى. ثم أكده بأمر آخر ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ وسواء كان المقصود بالعمل غير الصالح هو سؤال نوح عليه السلام، أو ما كان عليه ابن نوح من الكفر وعدم الإيمان، فعلى الوجهين عمل غير صالح، فورد البيان بما يجمع بين الدلالتين، بأنه لا يصح أن تسأل المغفرة لمن تحقق فيه الكفر، وكذلك لم يكن كفره عمل صالح، ليستحق به النجاة، بل عمل غير صالح. وهذا من بلاغة البيان ورحابته، بأن أجاب على الوجهين بنص واحد.

ثم يوجه الله تعالى نبيه نوح عليه السلام بتوجيه عظيم عن محدودية السؤال ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: نهي من الله تعالى ذكره نبيه نوحاً أن يسأله عن أسباب أفعاله التي قد طوى علمها عنه وعن غيره من البشر، فلا تسألني بعدها عما طويت علمه عنك من أسباب أفعالي، وليس لك به علم ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ في مسألتك إياي عن ذلك... أن تبلغ الجهالة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/٢)

بك أن لا أفي بوعد وعدتك، حتى تسألني ما ليس لك به علم[١] فإذا كان هذا نوح عليه السلام يوجمه ربه تبارك وتعالى بذلك، فإنه يلزم المسلم أن يتأدب مع الله تعالى، فلا يسأله عما ليس له الحق في سؤاله، وإن فَعَلَ ذلك فإنه قد اتصف بما يجعله من الجاهلين في سؤال الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن اعتذار نوح عليه السلام، وطلبه المغفرة والرحمة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيناجي نوح عليه السلام ربه قائلاً ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ فاستعاذ نوح بالله تعالى، واستعان به أن يكرر السؤال بما ليس له به علم، فهي استعاذة تعبر عن التوبة من ذلك، فأستجير بك أن أتكلف سؤال ما ليس لي به علم ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ مما استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك. ثم عرض حاجته وافتقاره لمغفرة الله تعالى ورحمته ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وإن لم تغفر لي زلتي من طلبي ما ليس لي به علم، وترحمني بقبول توبتي وإنقاذي من غضبك ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: أكن ممن خسر حظه من فضلك وكرمك ورضاك، والنجاة من عقابك يا رب العالمين، فقد طلب عليه السلام مرضات الله تعالى بجميل الاعتذار. مما يعطي درساً في التذلل لله تعالى، وفي طلب المغفرة مع الرحمة من الله تعالى، وأن من فاتته مغفرة ورحمة الله تعالى فقد خسر خسراناً مبينا.

فيرد الله تعالى بكرمه وجوده على نوح عليه الصلاة والسلام بقوله عَزَّ وجل ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فقيل لنوح عليه السلام مع التنويه باسمه ﴿يَٰنُوحُ﴾ إكراماً من الله تعالى له ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ انزل بسلام وأمان من السفينة، ومصحوباً بالسلامة على الأرض، فكما سلمكم الله تعالى من بين أمواج الطوفان، فاهبط أيضاً من السفينة على الأرض بسلام، بل وعزز هذا السلام بإضافته له سبحانه وتعالى ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ ليفيد القدر الكبير من الحفاوة بنوح عليه السلام، والتكريم له، ويزيده الله تعالى بمزيد الفضل، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ أي: بالخيرات عليك. وقد وردت البركات بصيغة الجمع، لبيان أنه ليس خيراً

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٦/١٢)

واحداً، بل خيرات كثيرة بلا حدود، وهذا الكرم والعطاء من الله تعالى دليل على قبول توبته، واستجابة دعاء نوح عليه السلام، فأفاض عليه من رحماته وبركاته وخيراته سبحانه وتعالى.

ومن مزيد فضله وكرمه تبارك وتعالى أنه ضم إلى ما أعطى نوح عليه السلام جميع من كان معه بواو العطف ﴿ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ ليشمل السلام والخير جميع من معه من المؤمنين ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وسيخلف نوح وهؤلاء المؤمنين أممٌ ناشئة من نسلهم، فصار منهم المؤمن والكافر، فأما المؤمنين منهم فعليهم السلامة والبركة، وأما الكافرون منهم فإن الله تعالى سيمتعهم آجالهم، ثم يمسهم عذاب أليم.

ثم يخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما امتن وأنعم عليه به، من أنباء الغيب التي لم يشهدها ولا قومه من أحوال الأمم السابقة ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ فإن هذه الآيات الكريمة التي أنبأتك بها عن خبر نوح وقومه، هي من أنباء الغيب التي لا تعرفها أنت ولا قومك من قبل إنبائك بها بالقرآن العظيم، وقد وصلت إليك عن طريق الوحي ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ ﴾ وفي هذا إثبات الإعلام بها، مع قصر مصدره على وحي الله تعالى فقط، وأنه لم يكن لكم بها علم من غير الوحي، وهذا دقة في الإثبات، مع نفي مصادر التبليغ، وقطع وصول علمها من غير الوحي، مع التأكيد على عدم علمه صلى الله عليه وسلم بها من قبل هذا الوحي ﴿ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا ﴾ فنفى سبحانه وتعالى أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه معرفة بخبر تلك الأنباء من الغيب، سواء ما كان عن نوح عليه السلام وقومه، أو ما كان عن غيره مما لم يكن لهم به علم، مما يبين حصرية وصولها إليك إلى قومك بوحي من الله تعالى، مما يؤكد نبوتك بهذا النبأ، وبهذا العلم عن من سبق من الأمم

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى الصبر ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ فاصبر على القيام بأمر الله تعالى، وتبليغ رسالته، وعلى ما تواجه من قومك، وغيرهم كما صبر نوح عليه السلام ﴿ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ فإن العاقبة والنتيجة الحسنة لمن اتقى الله تعالى، بأداء فرائضه، واجتناب معصيته، فالمتقون هم الفائزون بالدنيا، والظفر والنصر فيها، وكذلك بنعيم الآخرة، كما كانت عاقبة نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، إذ صبر فنجا مما أهلك الله تعالى به من كفر من قومه، فكان النصر والظفر له وللمؤمنين معه، وأجزل الله تعالى له ولمن آمن معه العطاء في الآخرة. وفي هذا التوجيه الكريم بيان بفضيلة

الصبر، وأهميته، وكذلك بيان لمنزلة التقوى، ومن التزمها، وأن عواقب النتائج ومحصلاتها يحصره الله تعالى لمن تحلى بالصبر والتقوى.

وهي قاعدة عظيمة فيما يوجه المسلم من نفسه ومن غيره، فإذا دفعته نفسه لسرعة الانتقام فيذكرها بقوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وإن استثاره شيء عالج نفسه بقوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وإن أراد نصح أحدٍ استثارته أشياء أو أفراد، يذكره بقوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فهي قاعدة تربوية علاجية لتربية النفس على أفضل الأخلاق، بل وتعلم الإنسان الحكمة في معالجة الأمور ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

وفي هذا الإخبار والإنباء عن الأمم السابقة، إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بأن أعطاه الله تعالى علم ما كان غائباً عليه وعلى قومه، وفيه موعظة لقومه ولغيرهم بما وقع لنوح عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين من النجاة، وما وقع للكافرين من العذاب بالغرق المهيب والمخيف من قوته، وفي ذلك بيان لعظمة قدرة الله تعالى، وفيه موعظة في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بأن الله تعالى ناصر دينه والمؤمنين، وأن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ
(٥٠) يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوۡمِ
ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا
تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ
لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ
إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا
نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ

رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى قصة أخرى، عن رسول الله تعالى هود عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاد ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فقد عطف الله تبارك تعالى إرسال هود عليه السلام إلى قومه على إرساله تبارك وتعالى نوح عليه السلام إلى قومه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ثم قال تعالى بعد تمام قصة نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أي: وكذلك أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هود عليه السلام، قال القرطبي رحمه الله تعالى: فهو معطوف على ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ وقيل أخاهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم، كما تقول: يا أخا تميم، وقيل: إنما قيل له: أخوهم لأنه من بني آدم، كما أنهم من بني آدم(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي أرسلنا إلى عاد أخاهم، أي: واحداً منهم، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان، وهؤلاء هم عاد الأولى، وعاد الأخرى هم شداد ولقمان، وقومهما المذكورون في سورة الفجر، في قوه تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ وأصل عاد اسم رجل، ثم صار اسماً للقبيلة، كتميم وبكر ونحوهما(٢)

فكلمة ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ توضح منزلته ومكانته منهم وعندهم، واستهل مخاطبته لقومه بالنداء ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ لما فيه من شد الانتباه، واسترعاء اسماعهم لأهمية المقول لهم، كما خاطبهم بصفة الانتماء إليهم ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ ليبين منزلته منهم، ومنزلتهم له، فإنهم قومه الذي يفزع إليهم، ويحرص عليهم، وعلى مصالحهم. ثم أرشدهم إلى توحيد الله تعالى بالعبادة ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ اعبدوا الله وحده لا شريك له، فليس لكم رب يستحق العبادة سواه سبحانه وتعالى، فأبطل كل معبود غير الله تعالى، وأبطل كل ما يعبدون من دونه عَزَّ وجل ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فأنتم بعبادة غيره سبحانه وتعالى مختلقون باطلاً، لا صحة له، لأنه لا إله سواه سبحانه وتعالى. وقد تدرج معهم في الخطاب، من النداء الذي حمل حرصه

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٥٠٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٥)

عليهم إلى منزلته منهم ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ إلى الأمر بعبادة الله تعالى، مبرراً ذلك بنفي الألوهية والعبودية لغيره عَزَّ وجل، ومجلياً لهم أن غيره من المعبودات باطلة، فكل من عبدها قد افترى على الله تعالى باطلاً من عنده، من غير مستند.

ثم كرر هود عليه السلام مناداة قومه لاستيفاء حديثه في أمر مهم أيضاً ﴿يَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فكرر النداء، مع بيان الانتماء لقومه، فأفاد تكراره لجملة ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ المزيد من قوة النصح لمملوء بالحرص عليهم، والحث على إعطاء ما يقوله اهتماماً وعناية، فإنه أمر في غاية الأهمية. ومعللاً ذلك بأنه لا يطلب من وراء هذه الدعوة مقابلاً يقدمونه إليه ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فلا أطلب تكثراً وتكسباً مالياً من وراء ذلك، لينفي ما يمكن أن يتوهمون من أن مراده عليه السلام هو تحصيل السيادة وما يترتب عليها من تحصيل المال. مما يفيد أهمية إزالة ما يتوهم المنصوح، أو المدعو للخير، أو غيره.

ثم ينتقل إلى بيان مصدر الأجر الذي يطمع في تحصيله ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ فإن الأجر الذي ابتغيه محصور على الذي خلقني، فلفت انتباههم بهذا البيان إلى الله تعالى، من خلال تذكيرهم بالذي خلقهم، فأوجدهم، لأن الذي خلقه هو الذي خلق غيره، وفي هذا استثارة للنفوس والعقول إلى حقيقة من أوجد الوجود، فإنه هو الذي يستحق العبادة، وليست تلك الموجودات، التي لم تُوجِد نفسها، فضلاً أن تُوجِد غيرها، أو تمد غيرها بما يحتاجه، فتحقق له مبتغاه. ثم يستثمر هذا البيان بسؤال استفهام استنكاري ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فيستنكر عليهم عدم تعقلهم، أفلا تتأملون في دلالة ذلك، الذي يبين صدق القول والنصح لكم، والحرص عليكم، فإن هذا يستوجب عليكم العلم بحقيقية الألوهية والعبودية.

ثم يكرر مخاطبتهم بالنداء، والانتماء ﴿وَيَـٰقَوۡمِ﴾ ليؤكد به المزيد من الحرص، وأهمية الاهتداء، وقبول النصح، بأن تَبْدَؤُوا بالاستغفار ﴿وَيَـٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فأرشدهم إلى ما ينصلح به شأنهم في الدنيا والآخرة، بأن تطلبوا من الله تعالى محو ذنوبكم، وسترها، وعدم المؤاخذة عليها، فيكون استغفارهم فيما لو استغفروا ربهم دليل على أنهم أقلعوا عن الشرك، ووحدوا الله تعالى بإيمانهم به، وصرف العبادة له وحده سبحانه وتعالى. ثم يوجههم إلى التوبة بعد الاستغفار ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ وهو الإقلاع عن الذنوب فيما تستقبلون من قادم أيامكم، بما يحقق العزيمة على تركها حاضراً، وعدم العودة إليها مستقبلاً، والندم على ما فات وسلف من الشرك والمعاصي. وفي ترتيب التوبة بعد الاستغفار بحرف ﴿ثُمَّ﴾ يفيد الترتيب، بأن التوبة بعد

الاستغفار، لأن الاستغفار طلب التخلص من تبعات الذنوب، والتوبة: تعني الإقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه. فإن آمنتم بالله تعالى، وحققتم الاستغفار والتوبة، ومتطلباتها من الإقلاع عن الشرك، والعزيمة على عدم العودة لها، وحققتم العبودية لله تعالى كما أمر عَزَّ وجل يغيثكم بالأمطار والخيرات ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ فإن أديتم ما هو مطلوب منكم من الاستغفار والتوبة، يرسل الله تعالى عليكم الغيث من الأمطار التي تحيا بها البلاد، ويذهب بها الجدب والقحط.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿يُرْسِلِ﴾ تفيد تخصيص الإرسال أنه من الله تعالى، وكذلك خصوصية العطاء. كما أن جملة ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ التي تمثل العلو: فهو علو السحاب، وعلوا الْمُرْسِل، وهو الله تبارك وتعالى، وأن مصدر الخير هو من الله تعالى، كما أن في تخصيصه بكلمة ﴿عَلَيْكُم﴾ يفيد التكريم الخاص لكم، وأنه عطاء لكم من الله تعالى، لتركم الشرك، وتوحيدكم لربكم سبحانه وتعالى، وطاعتكم له ولرسوله هود عليه السلام، ومن صفات هذا المطر أنه ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي: أنه مطر كثير غزير، يتبع بعضه بعضاً، مما يفيد المبالغة في العطاء والكرم والعناية بكم ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يزيدكم شدة على شدتكم، ويكون ذلك بكثرة الولد، وسعة الأرزاق، وصحة الأجسام، لأن جميع ذلك يزيد الأمة قوة على قوتها. وهذه من دلائل النبوة، وكذلك من دلائل أن الأمة إذا ثابت إلى ربها، واستغفرت، وتابت، نزلت عليها الخيرات والأرزاق في الأبدان، والأوطان، ومنها كثرة الأولاد، والأموال. فالاستقامة سبب في تحصيل الخير. ووردت القوة عامة، لتشمل أنواعها وأصنافها.

ثم يهيب بهم إلى قبول ما يدعوهم إليه ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ فلا تتركوا وتفرطوا فيما أدعوكم إليه، فتدبروا، وتنصرفوا عن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، والبقاء في جريمة الشرك، فتدبروا عن الحق والخير إلى الإجرام، وهو الكفر بالله تعالى.

وبعد كل تلك المحاولات من نبي الله هود عليه السلام مع قومه، يردون عليه بما قاله الله تعالى عنهم ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فنادوا نبي الله هود عليه السلام بياء النداء ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ﴾ والتي تفيد أهمية الانتباه لما نقول ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ما أتيتنا بحجة وبرهان، حتى نسلم لك بما تقول، وتدعو إليه، مما يفيد أنهم كذبوا وأنكروا

آيات الله تعالى التي جاءهم بها، واعتبروا أنها ليست من البينات في شيء، وقرروا بناء على رفضهم البينات البقاء على شركهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا من أجل قولك، مما يفيد إصرارهم على كفرهم، ومُؤكدين ذلك بنفي تصديقهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلسنا مصدقين لك بالنبوة والرسالة. وهذا يبين أن المصر على كفره نتيجة الاستعلاء، يبحث ويتأول الآيات والحجج، ويرميها بالنقص، ولا يقيم لها وزناً، ويكابر على ما هو عليه، مع علمه بحقيقة ما جاء من العلم والبينات.

ثم يرمون هود عليه السلام بأذية آلهتهم له، من أجل إقناع النفس والآخرين بما يصدهم عن الحق ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ فعللوا دعوته لهم بأنها من أثر إصابة آلهتهم له بسوء، فجعلوا دعوة هود عليه السلام لهم للإسلام، هو بسبب ما نزل به من أذى تلك الآلهة، التي انتقص منها، وسبَّها. وهذا من أجل أن يُبَرِّرُوا لأنفسهم ولغيرهم ما يصرفهم عن نبي الله هود عليه السلام، وأنه بسبب انتقاص هود لآلهتهم، ونبذها، فقد مسته معبوداتهم بالسوء. فوصفوا ما عليه هود من الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالسوء، على أنه اختلال قد نزل به من معبوداتهم التي تجرأ عليها. وهي أصنام لا تتحرك، ولا تتكلم.

فيرد عليهم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام بما قاله الله عَزَّ وجل عنه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فأولاً: أُشْهِدُ الله تبارك وتعالى على نفسي، ثم أُشْهِدُكُم ببراءتي مما تشركون به في عبادة الله تعالى من الأوثان التي تعبدونها. وسماها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من غير الله تعالى، ووصفه بالدون، ليدل على أن كل شيء هو دون الله تعالى، وأنه تحت قهره وسلطانه، فإن آلهتكم، وأنتم تحت سلطان الله تعالى، فكيف تعبدون الأدنى، وتتركون الأعلى، وتعبدون المقهور، وتتركون القاهر فوق عباده.

وبعد بيان هذه المحصلة الوافية من الرد، يؤكد لهم أنه على حق وهم على باطل، وذلك من خلال قوة تحديه لكيدهم ومرادهم به من الشر ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ فاحتالوا أنتم وآلهتكم في إلحاق ما تحبون من الضرر والمكر ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني، بل عجلوا بما تحبون من إلحاق الضرر الذي تختارونه لي. وفكروا وتأملوا وتحققوا من كلامكم ودعواكم، هل تستطيعون أن تنالوا مني شيئاً مما تودون وتحبون إيقاعه بي. مما يبطل زعمكم من أن آلهتكم قد أصابتني بسوء، وهذا التحدي يكشف لهم ثقة ويقين هود عليه السلام بما يقول، والذي يُوجِبُ عليهم المزيد من التفكير، والتريث، والتعقل، والاهتداء بما جاءهم به عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى. وهذه براعة في الجواب، وثقة في الله تعالى من نجاته من كل مكر وكيد، والذي يبين توفيق الله تعالى لنبيه عليه السلام، وتسديده له، وكذلك أن الإيمان يُوَلِّد الثقة واليقين في مواجهة الباطل. وكذلك تكشف هذه المحاجة أن المعاند والمكابر، يبحث لنفسه ما يبرر به مسلكه الخاطئ، الباطل.

ثم يتدرج بهم إلى تأكيد ثقته في الله تعالى الذي أرسله لهم، وأنهم لا يستطيعوا فعل شيء من الكيد له ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإنني قد اعتمدت على الله تعالى في إفشال وصد كيدكم، مشيراً إلى حقيقة الربوبية ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ فهو ليس فقط ربي ومالكي، بل هو أيضاً ربكم ومالككم، سواء رضيم أم أبيتم، وبالتالي هو المتصرف فينا جميعاً، فَيُفْشِلُ كيدكم وينصرني عليكم، وفي هذا بيان لعجزهم، ومجاهرتهم به، وكذلك ثقته من خطابه وبيانه، مع ثقته في الله تعالى من نصره، ومن عجزهم عن إلحاق أي سوء به، بما يفيد نفي تحصيلهم لمبتغاهم من كيدهم له، وكان يجب عليهم تبعاً لذلك الحوار، أن ينهضوا ويتحفَّزوا إلى التفكير العميق فيما سمعوا من نبي الله. ولكن تمادوا في غيهم وطغيانهم.

ثم يتدرج من كون الله تعالى ربه وربهم إلى كونه رب كل ما يدب على الأرض، مما يفيد التحذير من قوته وسلطانه ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ فما من شيء يدب على الأرض إلا هو مالكه، وتحت قبضته وقهره وقدرته وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، فكلها ذليلة وخاضعة له عَزَّ وجل خضوع قهر وقوة سلطان وإرادة. وتدل كلمة ناصية على مقدمة الرأس، بما يفيد ذلة مخلوقاته له جَلَّ ثناؤه، وكمال التصرف فيها، من غير حول ولا قوة للمخلوق. ثم يبين عدل الله تعالى واستقامة شرعه ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإن ربي على طريق الحق، ومنهج الحق المستقيم، الذي لا جور ولا عوج فيه. مما ينبثق عنه أنه لن يسلطكم ويمكنكم مني وأنا على الحق، وأنتم على الباطل، وأنه محاسب ومجازي كلاً منَّا بما كان منه، فللمحسن الحسنى، وللمسيء ما يستحق من العقاب.

ثم يخبر الله تعالى نبيه هود عليه السلام بما يقول ويرد به عليهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ فإن أدبروا معرضين عن قبول دعوتك لهم، فقل لهم ﴿ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ فأنذرهم بأنني قد أديت الذي علي، فأبلغتكم برسالة ربي إليكم بتوحيده عَزَّ وجل، وترك عبادة الأوثان، وتجريد العبودية له وحده لا شريك له، فقامت الحجة عليكم كاملة، حتى لزمتكم الطاعة والاتباع. ثم يهدهم وينذرهم بالعذاب الذي يستأصلهم ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا ﴾ ويستبدل الله تعالى بكم قوماً غيركم، يطيعونه ويوحدونه، ولا يشركون في عبادته أحداً. وتفيد جملة ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ الاستبدال الناتج عن محوكم وإنهائكم بالهلاك الناتج عن عدم رضا الله تعالى عليكم، فيعذبكم بعذاب يهلككم به ويمحوكم من الأرض.

ثم يبين عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم، لإبقاء ذواتهم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ﴾ ولا تضرون الله تعالى بتوليكم عن الإيمان إلى الكفر. ولن تستطيعوا أن تضروا الله تعالى بشيء إن أراد هلاككم، مما يفيد كمال عجزكم عن الدفاع عن أنفسكم وإبقائها، وكذلك لا حاجة لله تعالى في إيمانكم. ثم ينتقل بالبيان إلى كمال قدرة الله تعالى في الحفظ والتدبير ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ فإن ربي تبارك وتعالى على كل ملكه حافظ له، وعليم به، فهو حافظ لدينه وللمؤمنين من أن يصيبهم من الكافرين سوء. كما يفيد أن الله تعالى بقدرته لا يحفظكم من السوء والبلاء والهلاك، بل يحققه فيكم جميعاً. فإن من يحفظه الله تعالى لا يستطيع أن يخترقه أحد، أو أن ينال من المحفوظ شيئاً إلا بقدر ما يقدره الله تعالى. فيؤكد لهم بهذا أن تحصيل السوء به متعذر عليهم، فلن يمكنكم الله تعالى منه جَلَّ ثناؤه، فإنني محفوظ بحفظ الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بوقوع العذاب على قوم عاد ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ولما جاء قضاؤنا بعذاب قوم عادا ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ فقد نجا الله تعالى نبيه ورسوله هود عليه السلام ومن آمن معه برحمته الكائنة منه، حيث نسب سبحانه وتعالى الرحمة والنجاة منه ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى، وبفضله ومَنِّه على من يرحمه، ويحفظه ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فنجاهم من العذاب الذي أصاب قوم عاد، وسماه ﴿ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لبيان شدته وقوته ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي: نجا الله تعالى نبيه هود، ومن معه من المؤمنين من عذاب شديد في قوته وأثره.

ثم يخبر الله تعالى باستحقاق قوم عاد لما أصابهم من الهلاك، بأنهم ارتكبوا ثلاث أسباب، قد أودت بهم إلى التهلكة، الأولى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ فعاد التي حَلَّ بهم العذاب، أنكروا وجحدوا آيات الله تعالى وحججه وبراهينه التي جاءتهم. ومن دقة البيان أن وصف الله سبحانه وتعالى نكرانهم للآيات بالجحود، ليبين شدة الإنكار، والجاحد هو الذي عرف الحق وأنكره، فنكرانه عن علم بالحقيقة، وتعمد لا شبهة فيها. والسبب الثاني: ﴿ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾ وعصوا رسله الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى، يدعونهم إلى توحيده عَزَّ وجل، واتباع أمره، واجتناب ما نهى عنه. ووردت كلمة الرسل بدل الرسول، لأن كفرهم برسولهم هود عليه السلام يعني كفرهم بجميع الرسل. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك: أنه قد يذكر لفظ الجمع ويراد به الواحد. والقول الثاني: أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب الكل. والقول الثالث: أن كل

مرة ينذرهم فيها هي رسالة مجددة، وهو بها رسول[١] أي: أن حالهم هو حال من يكذب بكل رسول يُرسل إليهم، فلن يؤمنوا بأي رسول فيما لو تكررت عليهم الرسل، فاستحالة إيمانهم ثابتة فيما لو تعددت الرسل، بما يفيد المبالغة. والسبب الثالث: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ واتبعوا مسلك ومنهج كل طاغية جاحد للحق، غير مذعن له. وجملة ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ تدل على جمعهم لصفات الجبابرة المتجبرين، الذين يقهرون الناس ظلماً وعدواناً، فلم يتركوا صفة للجبارين إلا تتبعوها وأخذوا بها واستعملوها، وكذلك قد اتصف كبرهم وتجبرهم بالعناد. والمعاند هو الذي يعرف الشيء وينكره، فاستجمعوا أقبح قبائح الصفات. ونتيجة لهذه العظائم، جاءهم الهلاك والطرد لهم من رحمة الله تعالى ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فَتَبِعهم في هذه الدنيا غضب الله تعالى وسخطه، وكذلك يوم القيامة فإنهم مُبْعَدُون عن رحمته عَزَّ وجل، ومطرودون عن الخير، فأتبعهم الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة، وكلمة اللعنة تدل على الطرد المشمول بالإهانة والإذلال.

ثم يقول الله عَزَّ وجل ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ أي: كفروا بربهم، وهذا تأكيد، مسبوق بأداة التنبيه ﴿أَلَآ﴾ لتهويل أمر ما حصل منهم من الكفر. ثم أكد كمال وتمام كفرهم بأداة التوكيد ﴿إِنَّ﴾ فإن كفرهم متحقق بكل الشواهد والحجج، فقد كذبوا بآيات الله تعالى، وبرسله، بل وعاندوا، واستخدموا في عنادهم طرائق كل جبار عنيد. ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ أي: أبعدهم الله جَلَّ جلاله عن رحمته، وأوردهم العذاب والهلاك. ومن جميل البيان وحُسن العدل في الحكم، أنهم لما اتَّبَعُوا أمر كل جبار عنيد، أَتْبَعَهُم اللهُ تعالى اللعنة والطرد، فهي تطارهم بمثل ما تولوا واتبعوا سُبُل الجبابرة المعاندين.

ثم كرر الله تعالى أداة التنبيه ﴿أَلَا﴾ للمزيد من التنبيه والتأكيد وتوضيح ما يستحقون بالإبعاد عن رحمة الله تعالى، وعن كل خير، وبما يؤكد تحقق تحصيل العذاب المهين لهم، ومن دقة البيان والحكم أن قد حددهم سبحانه وتعالى تحديداً دقيقاً ﴿بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ وفي هذا تخصيص وتنبيه بشناعة ما كان منهم مع نبيهم هود عليه السلام، وفيه كذلك استبعاد للمؤمنين ولمن يأتي بعدهم ممن يستخلفهم الله تعالى بعدهم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٩٧)

قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى قصة قوم ثمود مع رسول الله صالح عليه السلام، وفيها المزيد من الموعظة للمشركين وغيرهم، ولمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة، لما في قصص الأنبياء مع أقوامهم من الدروس والعبر والمواعظ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ ومن براعة البيان أن بدأت الآية الكريمة مباشرة ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ من دون كلمة أرسلنا. ومع هذا جاء السياق منسجماً ومتوائماً مع ما قبله من البيان. لأن واو العطف ﴿وَإِلَىٰ﴾ أضافت دلالة الإرسال على ما قبلها، وهي قصة عاد، فكما أرسلنا إلى عاد رسولهم هود عليه الصلاة والسلام، أرسلنا إلى ثمود نبينا صالح عليه الصلاة والسلام.

فأرسل الله تعالى إلى قوم ثمود أخاهم صالحاً ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ قال القرطبي: أي: في النسب[١] فأمرهم رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام بعبادة الله تعالى ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أصرفوا العبادة لله وحده لا شريك له، واتركوا عنكم الشرك، وما تعبدون من الأصنام، وقد ناداهم بانتسابه إليهم، حيث استهل مخاطبته لقومه بالنداء ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ لما فيه من شد الانتباه، واسترعاء اسماعهم لأهمية مقالته لهم، كما خاطبهم بصفة الانتماء إليهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ليبين منزلته منهم، ومنزلتهم عنده، فإنهم قومه الذي يفزع إليهم، ويحرص عليهم، وعلى مصالحهم، ثم أرشدهم إلى وحدانية الله تعالى. حيث انتقل إلى نفي الألوهية

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٣٨/٩)

عن كل معبود، وتخصيصها لله تعالى ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ليس لكم رب تعبدونه، وتتوجهون له إلا الله عَزَّ وجل، فاتركوا كل معبود سواه. ثم يقرر لهم الحقيقة التي تؤكد لهم حقيقة صرف العبودية له سبحانه وتعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فهو الذي خلقكم من الأرض، أي أن أصل النشأة من الأرض، التي خلق منها آدم عليه السلام أبو البشرية، بما يفيد أن الذي يستحق العبادة هو الخالق الذي أوجدكم، وليس مخلوق مثلكم، وفي هذا استثارة الفكر للتأمل، ثم أوضح لهم حقيقة التوافق بين مطالبهم البشرية، وبين مكونات الأرض التي خلقكم منها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمَّاراً لها، وهذا يفيد أنه سبحانه وتعالى جعلكم تعمرونها، وجعل لكم المكونات التي تحتاجونها لعمارتها، فهذا التناسب والتوافق يدل على عظمة الخالق، فكيف تعبدون غيره، ممن ليس له إرادة في تحقيق ذلك، وأن من متطلبات استعماركم فيها هو إعمارها بطاعته، واتباع ما جاءكم من عند الله تعالى. وهذا البيان والاستدلال يستثير الذهن والفكر للتأمل في هذه الحقائق. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الحقائق العقلية والنقلية، التي تتوافق وتتعاضد، ولا تتنافر.

ثم يوجههم إلى أولى خطوات الاتباع ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فأرشدهم إلى ما ينصلح به شأنهم في الدنيا والآخرة، بأن يطلبوا من الله تعالى محو ذنوبهم، وسترها، وعدم المؤاخذة عليها، فإن استغفارهم فيما لو استغفروا ربهم دليل على أنهم أقلعوا عن الشرك، ووحدوا الله تعالى بإيمانهم به، وتوحيده بصرف العبادة له وحده سبحانه وتعالى. ثم يُوجههم إلى التوبة بعد الاستغفار ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: الإقلاع عن الذنوب فيما تستقبلون من قادم أيامكم، بما يحقق العزيمة على تركها حاضراً، وعدم العودة إليها مستقبلاً، والندم على ما فات وسلف من الشرك والمعاصي. وفي ترتيب التوبة بعد الاستغفار بحرف ﴿ثُمَّ﴾ ما يفيد: أن التوبة تكون بعد الاستغفار. فإن آمنتم بالله تعالى، وحققتم الاستغفار والتوبة، ومتطلباتها من الإقلاع عن الشرك، والعزيمة على عدم العودة لها، وحققتم العبودية لله تعالى كما أمر عَزَّ وجل، فإنه يغيثكم بالأمطار والخيرات.

ثم يرغبهم في الاستغفار والتوبة ببيان قُرب الله تعالى وسرعة إجابته ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ فإن ربي قريب بأمره وقضائه، وسرعة استجابته، وكذلك مجيب الدعاء لمن أخلص له، فيغفر لكم، ويتوب عليكم من شرككم وذنوبكم، ويعطيكم ما تطلبون، فتوجهوا له بالاستغفار والتوبة، وبما تحبون من الدعاء الصالح.

فرد قومه عليه بأسلوب الاستعظام لأنفسهم وعقولهم، والاستصغار لنبي الله صالح عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فبدأوا جوابهم بياء النداء ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾ للفت الانتباه من أجل لومه، فقالوا ﴿قَدْ كُنتَ

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ أي: قد كنت محل رجاء لنا فيك، وتطلع، فخيبت رجاءنا وتطلعنا بما تقول، وتدعونا إليه، وهو أسلوب استصغار لنبيهم، وتعظيم لأنفسهم، يريدون من خلاله ثني عزيمته، وتحطيم نفسيته ليتراجع عن دعوته لهم، وعن أداء رسالته. مما يكشف عن أساليب الاستصغار وثني العزائم، بإطلاق الأمل الذي خيبه الواقع. وقد أُطلق الرجاء ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ ليشمل جميع أنواع الرجاء من الخير، بما يفيد إنا كنا نرجو فيك خيراً كثيراً، ولكن خاب هذا الرجاء. ثم توجهوا لنبيهم بسؤال استنكاري عما نهاهم عنه ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ أيصح منك أن تنهانا عن ما كان يعبده الأولون منا من الآباء؟ ثم تدرجوا إلى رميهم له بالشك في محتوى ومضمون دعوته ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فيقررون شكهم في دعوته إلى توحيد الله تعالى، وترك بقية الآلهة، فإنه أمر مريب لهم، مما يُوجِب التهمة لنبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، بما يعني أنك أتيت بأمر حادث، يُوجِب الريبة في مرادك من وراء ما تدعوا إليه، أي: فإن لك مصلحة تريد تحقيقها من هذه الدعوة. وفي هذا تعظيم لآلهتهم ولما يعبدون، وتعبير عن الرفض التام لما جاء به نبي الله صالح عليه السلام.

ثم يجيبهم ويرد عليهم نبي الله صالح بجواب وبرد مملوء بالحكمة والرحمة، إذ لم يستثر كلامهم له عليه الصلاة والسلام غضبه عليهم، لأنه صاحب رسالة سامية، فكان أسلوبه سامياً عالياً، ومترفعاً عن السوء ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فكرر النداء لهم بانتسابه لهم، وبأنه حريص عليهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ فلم يعزل انتسابه لهم، بالرغم من رميه بالشك في دعوته، والريبة في شأنه ومراده، ليقول لهم ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي أعلموني واخبروني حال إن كنت على برهان وحجة قد علمتها وأيقنتها من الله تعالى، أتسلمون؟ فاتجه عليه السلام إلى تقريرهم بصحة دعوته من خلال سؤالهم فيما لو كانت البينة أي الحجة التي معه من الله تعالى تُثبت صحة دعوته، أيسلمون؟ ثم أضاف ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ وهي النبوة والحكمة والإسلام ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ فإن عصيته بعد هذه الرحمة التي امتن الله تعالى بها علي لأبلغكم بها، فمن يجيرني ويمنعني من عذابه سبحانه وتعالى، فمن ينصرني منه. وهو سؤال يقررهم به ويعلمهم، أنه لن يتخلى عن رسالته التي أرسله الله تعالى بها. وأن عليهم اغتنام فرصتها ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فإن اتبعتكم لن أزداد بكم إلا خسارة الدنيا والآخرة. فلن يزيدني كلامكم إلا تحصيل الخسارة، والعقوبة من الله تعالى إن أطعتكم على احتجاجكم عليَّ بما ورثتموه عن آبائكم. مما يلزمني التمسك بما قلته لكم، فلن أحيد عنه.

ثم ينتقل بهم إلى آية وحجة عظيمة من الله تعالى ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾ فيبدأ كلامه عليه السلام بتكرار النداء لهم عن انتسابه إليهم، وحرصه عليهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فلم يعزل انتسابه لهم، بالرغم من ردودهم التي تحمل العناد والاستهانة، ليقول لهم ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾ هذه ناقة الله تعالى لكم فيها برهان وحجة بينة، ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه. قال القرطبي: قيل: ناقة الله، لأنه أخرجها لهم من جبل، على ما طلبوا، على أنهم يؤمنون، وقيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر، يُقال لها: الكاثبة، فلما خرجت الناقة على ما طلبوا، قال لهم نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾[١] فإن خروجها بتلك الصورة والهيئة كافية في حجيتها. ثم طلب منهم أن يتركوها ﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ فاتركوها تأكل من الأرض رزقها، فليست مؤنتها عليكم، ويلزمكم أن لا تؤذوها بأي نوع من الأذى ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ ﴾ ولا تنالوها بما يسوء، سواء من قتل أو أذى. ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾ فينالكم من الله تعالى عذاب غير بعيد، فيهلككم به إن تعرضتم لها بأذى. وفي هذا إعلام وتحذير، بعد تلك الحجة والبرهان الخارق للعادة، والمبهر للنفوس والعقول.

ولكن أخذهم عنادهم وجرأتهم وتطاولهم إلى أن عقروا الناقة ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ فلم يمتثلوا أمر نبي الله صالح عليه السلام، فحصل منهم أن عقروا الناقة. قال ابن الجوزي رحمه الله: قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ أي: قتلوها، قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل[٢] والعقر هو الجرح، وقيل قطع عضو يؤثر في النفس[٣] فيتلفها. وأسند العقر إلى الجميع، مع كون العاقر واحد منهم، لأنهم راضون بذلك، موافقون عليه[٤] مما يدل على أن مشاركتهم استوفت الجميع.

ثم أنبأهم نبي الله صالح بموعد العذاب الذي سيهلكهم الله تعالى به ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ أي: تمتعوا ما بقي من آجالكم ثلاثة أيام، فإن العذاب واقع بكم بعدها ﴿ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ فهو وعد حق، صادق غير مكذوب فيه. قال ابن جرير الطبري

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٤١/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٧)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٢٢٠/٢)

رحمه الله تعالى: وذُكِر لنا أن صالحاً حين أخبرهم أن العذاب آتيهم، لبسوا الانطاع، والأكسية... وكانت منازل ثمود بحجر بين الشام والمدينة[١] وهي في منطقة العلا، والانطاع جمع نطع، وهو البساط من الجلد. وفي إخبارهم بذلك ما يجعل تلك الأيام عليهم خوف ورعب، ولكأنها أنستهم ما كانوا يتمتعون به طيلة حياتهم السابقة. وإن لبسوا الأنطاع والأكسية فهو غاية التمادي في التحدي، وعدم الطاعة والكفر.

ثم يخبر الله تعالى بنجاة رسوله صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وذلك عندما حل العذاب بقوم ثمود ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ فلما جاء قضاء الله تبارك وتعالى، وأمره بإنزال العذاب فيهم ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فقد نجا الله تبارك وتعالى نبيه صالح عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ فنجا الله تعالى نبيه صالح ومن معه من المؤمنين برحمته جَلَّ جلاله، المتضمنة للنعمة والفضل منه عَزَّ وجل، وقد ربط الله تعالى نجاتهم برحمته المتضمنة لعنايته وفضله التي شملتها رحمته جَلَّ ذكره ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ فنجاهم حين جاء أمره عَزَّ وجل بالعذاب المخزي لقوم ثمود ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي: العذاب الذي أذل قوم ثمود، فأخزاهم به، حيث ذاقوا بهذا العذاب الذل والهوان.

ثم يخبر الله تعالى بما يفيد الإثبات والتحذير ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فإن الله تعالى قوي في بطشه، إذا بطش، كما حل بقوم هود. وهو عزيز سبحانه وتعالى، فلا غالب له، ولا غالب غيره، ولا قاهر بعده، بل هو الغالب والقاهر، وهو المتفرد بالعزة التي ليس فوقها عزة، سبحانه وتعالى.

ثم يذكر الله تعالى بما حل على ثمود من العذاب ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ فسمى الله تعالى قوم ثمود بالذين ظلموا، لارتكابهم ظلم الشرك، فظلموا أنفسهم بإيقاعها في العذاب المهين، وفي ذلك إيعاز لمشركي قريش، ولغيرهم، ولمن بعدهم، بما يفيد خطورة الشرك، الذي يظلم الإنسان به نفسه، فيوردها الخزي والعذاب المهين. وأورد تبارك وتعالى نوع عذابهم بأنه بالصيحة. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن الصيحة والصياح واحد، قيل: صيحة جبريل، وقيل صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا[٢] ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أي: ساقطين على وجوههم موتى، وقد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٦/١٢-٤٥٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٩)

التصقت وجوههم بالتراب. فتكون صورتهم في أرذل صورة، وأحقر موقف لهم في الدنيا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ﴾ وكأنهم لم يعيشوا في بلادهم وأرضهم، فإن مثلهم كمثل الذي لم يكن موجوداً، ولم يحصل لهم فيها تنعم وحياة، ورفاهية. وهي صورة من فارق الحياة الدنيا على شر وكفر، إذ لم يبق لهم أثر يُذكَر إلا الشر، ففارقوا ما كانوا يتنعمون به إلى الجحيم المقيم. ليكون ذلك عبرة وعظة لكل أحد من الناس.

ثم يؤكد الله تعالى سبب ذلك ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أي: جحدوا ما جاءهم من الحق، وكفروا به، وقد ابتدأ هذا البيان بحرف ﴿ أَلَآ ﴾ الذي يفيد التنبيه، ولفت الفكر والنظر إلى تأكيد أن ما أصاب قوم ثمود من العذاب هو بسبب كفرهم. الذي أكده سبحانه وتعالى بأداة التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ فإن كفرهم متحقق بكل الشواهد والحجج، فقد كذبوا بآيات الله تعالى، وبنبيهم صالح عليه السلام، وبالناقة التي كانت آية عظيمة وحجة ظاهرة، بل وعاندوا حتى عقروها، وقد نُهوا عن ذلك، فاتعظوا أيها الناس بهم وبما كان منهم، ومن حالهم الذي انتهوا إليه.

ثم يتكرر تهويل أمرهم للعظة بهم ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ فبعداً وطرداً لهم من رحمة الله تعالى، فقد تكرر تأكيد التهويل، وتكررت أداة التنبيه ﴿ أَلَا ﴾ لإظهار هول أمرهم، وما كان منهم من الكفر، وما حل بهم من العذاب، الذي استحقوا به الإبعاد والطرد عن رحمة الله تعالى، وعن كل خير، بما يؤكد تحصيل العذاب المهين لهم في الآخرة كما حصل لهم في الدنيا.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ
(٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ
لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ
ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ
رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ
ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ
جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

ينتقل البيان من الله تعالى إلى قصة لوط عليه السلام مع قومه، مروراً برسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام، وكان قوم لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاده فلسطين، فلما أنزل الله تعالى الملائكة بعذاب قوم لوط، مروا بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه يُحْسِنُ قِرَاه، فلما مروا لتبشيره عليه الصلاة والسلام ظن أنهم أضيافاً، وهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل عليهم السلام، قاله ابن عباس[1] وقد أكد الله تبارك وتعالى خبرهم في السياق بحرف ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ للاهتمام والتأكيد كما جاء كذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾

فيخبر الله تعالى بمجيء الملائكة الذين هم رُسُل الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالبشرى ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ أي: بالبشارة، التي هي: بشارته بإسحاق[2] ﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ﴾ فابتدأت الملائكة هذا اللقاء بالتحية، فقالت ﴿ سَلَٰمٗا ﴾ أي: فَسَلَّمُوا عليه سلاماً، فرد عليهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ سَلَٰمٞۖ ﴾ بمعنى وعليكم السلام، وبمعنى نحن سِلْمٌ منكم[3] وبعد أن سلم عليهم أكرم ضيافتهم بالطعام، لأنهم جاؤوا على صورة جنس الإنسان ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾ أي: ما أطال وما تأخر عليهم في إحضار الطعام، فجاء لهم بخروف ﴿ حَنِيذٖ ﴾ أي: مشوي. مما يدل على كرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسرعة إعداد الطعام، ومباشرته لهم به، قبل أن يستفسر ويعرف من يكونون، ومن أين هم قادمون. مما يفيد أن من إكرام الضيف مبادرته بالطعام.

ولكن حدث منهم ما استثار تعجبه ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ﴾ فقد حدث منهم خلاف حال الأضياف من البشر، حيث امتنعوا عن الأكل ﴿ رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ ﴾ فرأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام، وهنا حدث له عليه الصلاة والسلام أمران، الأول: ﴿ نَكِرَهُمۡ ﴾ استنكر هذا الامتناع منهم، لأن الضيوف لا يمتنعون عن ما يقدمه المضيف إليهم من الطعام والماء، والأمر الثاني: ﴿ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ﴾ أي: خاف منهم. فأضمر في نفسه خوفاً، فحدثته نفسه بالخوف منهم، حتى

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٦/١٢)

(٣) وقد فصل فيها ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠١/٤)

ظهر ذلك على وجهه عليه الصلاة والسلام، فبادروه بما يرفع الخوف عنه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي: فلما رأوا الخوف عليه منهم، باشروه بما يزيل الخوف عنه، فقالوا: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ تطميناً له، بأن ليس وراءهم ما يخيفه ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ إنا رُسُل الله تعالى إلى قوم لوط، بما يفيد مُرْسَلُون لهم بالعذاب. فتبين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة، مما يفيد أن الملائكة لا يأكلون طعام الدنيا.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من زوجة إبراهيم، سارة عليه الصلاة والسلام ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ ﴾ أي: واقفة من وراء الستر، وسمعت كلام الملائكة المرسلين، وكلام زوجها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿فَضَحِكَتْ ﴾ متعجبة من حالها وحال زوجها في اهتمامها بخدمة ضيوفها، وضيوفها ممتنعون عن ما أعدوه من الطعام، ثم يتضح بعد امتناعهم أمراً آخر أثار تعجبها، بأنهم ملائكة وليسوا بشراً، فزاد هذا من تعجبها. ثم يأتي أمر ثالث يستثير المزيد من التعجب، وهو تبشيرهم لها بالولد وهي امرأة كبيرة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ فبشرت الملائكة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام سارة بابن لهما، اسمه إسحاق ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي: ومن ابنهم إسحاق يأتي له ابن اسمه يعقوب، فمن ذرية إسحاق يعقوب عليهم السلام جميعاً، فكأن لسان حال الملائكة يقول: أبشري أيتها الضاحكة: بأنك ستلدين ولداً اسمه إسحاق، ويلد لإسحاق يعقوب، فتعيشون لتروا ولد الولد. فهي بشارتان متتاليتان عظيمتان. ستبدل خوفها فرحاً وسروراً. ومن دلائل النص الكريم إن تسمية إسحاق ويعقوب كانت من الله تعالى.

وقد استدل بذلك من قال بأن الذبيح هو إسماعيل، والذي يرجحه ابن كثير رحمه الله تعالى، حيث قال ومن ها هنا استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب. فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله تعالى حق، لا خلف فيه. فيمتنع أن يُؤمر بذبح هذا، والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال، وأصحه وأبينه، والله أعلم[1] ولعله هو الراجح، ويؤيده ما ورد في سورة الصافات، حيث وردت البشارة مرتين، الأولى بالذبيح وهو قوه تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٦٨)

مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ والثانية بإسحاق مع تسميته، وأنه نبي من الصالحين ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ وفي هذا التعاقب في سورة الصافات ما يؤيد ترجيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

ولكن مما زاد تعجب امرأته سارة هو وجود علة امتناع الحمل منها ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ فقد أجرت على حالها سنة الله تعالى في عباده، بأنها عجوز، وزوجها إبراهيم الخليل شيخ، قد كبر في سنه. ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ وهي جملة تفيد التعجب والاستغراب، تقولها العرب عند الاستغراب. ثم استفهمت استفهاماً مملوءً بالتعجب ﴿ ءَأَلِدُ ﴾ كيف ألد؟ وقد امتنعت أسباب الحمل مني ومن زوجي ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ مما يدل على تقدمها في السن، إلى درجة استحالة تحصيل الحمل بالولد.

فقد أكدت تقرير تعجبها بالتصريح، فأنى يكون لي ولد وأنا عجوز؟ ﴿ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ فزوجي أمامكم شيخ كبير. قال مجاهد رحمه الله تعالى: أنها يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم عليه السلام ابن مائة سنة[1] ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾ فالولد من مثلي ومثل زوجي أمر عجيب. وتأكد البيان بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ليفيد غاية التعجب المؤكد. لأن هذا هو حال الإنسان أمام ما لا يتوقعه، وما لم يكن في حسبانه، فكيف إذا كان متجاوزاً لما وضعه الله تعالى من السنن الكونية وفي العباد، ومنها النسل.

وهنا تتساءل الملائكة تعجباً وإنكاراً من تعجبها، لما تعلمه الملائكة من قدرة الله تعالى، ولأنها حاملة لرسالة الله تعالى لهم ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فتقول الملائكة: أتعجبين من قَدَرِ الله وقدرته سبحانه وتعالى فيما أمر به؟ ثم تؤكد لهم خصوصية أهل هذا البيت من الرحمة الخاصة من الله تعالى لهم بها ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ فلكم من الله عَزَّ وجل رحمة وعناية وبركة وتوفيقاً عليكم أهل هذا البيت، ليشمل كل من يحفهم ويجمعهم هذا البيت ويضمهم. فلا عجب من أمر الله تعالى إن خصكم بخوارق العادات، التي هي آيات معجزات، وأنتم الذين خصكم الله تعالى بتلك الرحمة والبركة من بين عموم رحمته وبركاته، فلا غرابة ولا عجباً إذاً، فقد عاملكم ربكم معاملة خاصة أهل البيت. ليدرك

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٣/١٢)

المرء أن الله تعالى إذا أراد شيئاً، أو خص أحداً بعطاء، فإن الله تعالى يتجاوز به السُّنَن التي وضعها سبحانه وتعالى، بما يفيد أن على المؤمن أن يعلق قلبه بالله تعالى، فهو الذي يطوع السُّنَن، ويجريها كيف يشاء سبحانه وتعالى.

ثم تؤكد الملائكة لهم ما يزول به العجب ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ فإن الله تعالى محمود في فضله وتفضله، فيأمر ويعطي بما يوجب حمده وشكره والثناء عليه، وما هو أهلٌ له من الحمد والمجد ﴿ حَمِيدٌ ﴾ وهو من صيغ المبالغة التي تفيد كثرة حامديه في السماوات والأرض، وأنه محمود عند خلقه تبارك وتعالى بما أعطاهم وبسط عليهم من فيض نعمه سبحانه وتعالى، وهو المحمود بكل لسان وعلى كل حال، فلا يُحْمَدُ في السراء والضراء إلا هو عَزَّ وجل، فهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه، وما يقدره ويمضيه، وما يمنعه سبحانه وتعالى. فهو جَلَّ جلاله عظيم الشأن، كثير الإحسان على عباده، بما يفيضه عليهم من الخيرات، ولا حدود لنعمه وإنعامه عَزَّ في علاه، بما يعلل أن ما خصكم به من الرحمة والبركة، حتى في الإنجاب، هو من عظيم رحمته ولطفه، مع أنكما في السن الذي لا يُنجب فيها غيركم، ممن وصل إلى حال سنكم. مما يبين عظيم رضى الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى أهل بيته. وأما اسم ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ فهو من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة، التي تعني ذو مجد ومدح وثناء كريم، وتعني كثرة المجد والتمجيد، وكمال صفاته وكثرتها سبحانه وتعالى، وأنه ذو مجد وعظمة، فيكثر إحسانه إلى درجة المبالغة في العطاء والإحسان.

ثم يخبر الله تعالى عن حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ فلما ذهب عن إبراهيم الخوف، أي الخيفة التي وجست في نفسه مما هاله وراعه من امتناع الأضياف عن أن الأكل من الحنيذ المشوي الذي أعده وقدمه لهم. بما يدل على هول ما أصاب إبراهيم عليه السلام من ذلك الموقف، ومع هذا فإنه عندما ذهب عنه الروع، وجاءته البشرى ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ فلم تُنْسِه البُشرى بالولد ثم ابن الولد شأن وأمر لوط عليه السلام وقومه، بل إنَّ حِرْصَّه واهتمامه بغير نفسه عظيم. فقد بدأ يحاج المرسلين في شأن قوم لوط، فهو لا يجادل الله تعالى بالدفاع عن قوم لوط، وإنما مجادلته هي: الطلب والسؤال، فيسأل ويطلب الله تعالى في شأن قوم لوط، لأن جبريل ومن معه، أخبروا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنهم مهلكوا أهل قرية لوط، كما في سورة العنكبوت ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال الملك لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رُفع عنهم العذاب. وعن قتادة: ذُكر لنا أن مجادلته إياهم أنه قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين، أمعذبوها أنتم؟ قالوا: لا. حتى صار

ذلك إلى عشرة. قال: أرأيتم إن كان فيها عشرة، أمعذبوهم أنتم؟ قالوا: لا. وهي ثلاث قرى، فيها ما شاء الله من الكثرة والعدد[١] وإن كانت المجادلة مع الملائكة بالسؤال، فهو يتضمن مناجاته لله تعالى في شأن قوم لوط بالدعاء والتوسل. وهذا يدل على شفقته وفق ما يرى، والله تعالى أعلم بالحقائق، وبما يستحقون. ولذلك أثنى الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومدحه وزكاه بثلاث صفات جامعة للخير مع الخلق، ومع ربه تبارك وتعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ فالصفة الأولى: ﴿لَحَلِيمٌ﴾ إن إبراهيم لموصوف بالحلم، الذي هو التريث فيما يحسن فيه التريث، كالحلم عند الغضب، فلا يستعجل فيما لا يجب فيه العجلة، مما أكسبه ذلك الحلم منقبة وفضلاً كريماً. والصفة الثانية: أنه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ متذلل وقانت وخاشع لربه تبارك وتعالى، ومنقاداً لله عَزَّ وجل، والصفة الثالثة: أنه ﴿مُّنِيبٌ﴾ رَجَّاع إلى طاعة الله تعالى. مما يؤكد ويبين أهمية هذه الصفات، وأنها مما يحبه الله تعالى في العبد ويرضاه له، وأن بها تُكتَسَب المحامد، وأنها تُكسِب صاحبها طاعة الله تعالى، فيستحق بها المدح والثناء، من الله تعالى، ومن عباده كذلك.

ثم يوجه الله تعالى عبده وخليله إبراهيم بقوله تبارك وتعالى ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فينادي الله تعالى إبراهيم باسمه ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وفي هذا تعظيم وتكريم له، عليه الصلاة والسلام، بأن يناديه الله سبحانه وتعالى باسمه، ثم يأمره ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ اترك ما عارضت به الرسل من الملائكة ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فقد قضى الله تعالى في الأمر، وصدر حكمه عَزَّ وجل فيهم بما يستحقون من العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فإن العذاب نازل بهم، غير مدفوع عنهم بأي حال.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٤٩٠)

أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

لما ذهبت الملائكةُ من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام، توجهوا إلى لوط عليه الصلاة والسلام، ولوط هو ابن هارون بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام(١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ولما جاءت الملائكة الذين هم رُسُل الله تعالى إلى لوط ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ استاء من مجيئهم، لأنهم جاؤوا على صورة البشر، فخشي عليهم من قومه الذين يعملون الفواحش، وهو لا يعلم بأنهم ملائكة قد أرسلهم الله تعالى، وكانوا في أجمل الصورة البشرية ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاقت نفسه بهم، وضاق وسعه وطاقته، لأنه لا يستطيع بمفرده مقاومة قومه، ووصف ذلك اليوم، وما أصابه من كرب عظيم، بما يعبر عن شدة خوفه عليهم ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي: هذا يوم شديد شره. مما يفيد أن قومه لا يبالون بمكانة الضيف، وأنهم في أشد صور الإجرام بالتسارع إلى فعل الفاحشة بما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأنهم لا يردهم ولا يمنعهم أدب ولا أخلاق، فقد تجاوزوا في ذلك كل شيء. ومن دقائق البيان أن وصف الله تعالى حالة لوط عليه السلام بثلاث أوصاف، معبرة عن ما اختلج في نفسه من مشاعر الألم، وعن عدم قدرته على دفع الشر عن أضيافه. فالوصف الأولى: ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ استاء من مجيئهم. والثانية: ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاقت نفسه ووسعه وطاقته بهم. والثالثة: ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هذا يوم شره شديد.

ثم يخبر الله تعالى عن مجيء قومه إليه، وعن سرعتهم، وهيأتهم، بأنهم جاؤوا مهرولين ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي: يمشون مشي المدفوعين، مسرعين مستعجلين في المشي، وكلمة ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ فعل لم يظهر فاعله، ليفيد أن اندفاعهم كاندفاع من لا عقل له. فهي دقة بيانية عميقة في دلالة السياق، لتبين الإعجاز البياني في ألفاظ القرآن الكريم. مما يبين حرصهم الشديد، وانتفاء الحياء منهم، وعدم الاكتراث بنبي الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٠)

تعالى لوط عليه السلام، وجراءتهم على الأضياف، الذين هم محل كرم وحماية وحفاوة، مما يبين تماديهم وطغيانهم الذي يستحقون به أشد العذاب وأنكله.

ثم يخبر الله تعالى عن حالهم من قبل هذا الموقف، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: عادتهم إتيان الرجال من قبل مجيئهم إلى لوط عليه السلام، قاصدين الرُّسُل. ومن الأدب في القرآن الكريم أن سمى فعلهم بالسيئات، التي تعبر عن الفعلة القبيحة، وتعبر عن المقصد. مما يعلم الإنسان وجوب الأدب في وصف القبيح، وعدم التجاوز في ذكره وتحقيق وصفه، وهذا يدل على عظيم أدب الإسلام، وكريم أخلاقه في التوجيه والتحليل والوصف. وكذلك يبين عظمة أخلاق القرآن العظيم.

وعند وصولهم بيت لوط عليه السلام، وعلى بابه ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فبادرهم بالملاطفة لمعرفته بطبيعتهم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾ فبادرهم بياء النداء، وبانتسابه وإياهم لقوم وجماعة واحدة، فله عليهم حقوق وآداب. ثم وجههم إلى الزواج من بناته، ووصف الزواج ببناته خير وأطهر من إتيان الرجال. والمقصود ببناته: نساء أمته، ذكره ابن جرير(١) وقال القرطبي: عن مجاهد وسعيد بن جبير: أشار بقوله ﴿ بَنَاتِى ﴾ إلى النساء جملة، إذ نبي القوم أب لهم، ويقوي هذا قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم) وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة، ولم يرد امضاءه. وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته، ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا(٢) وجميع الأوجه محل احتمال، ولا تعارض بينها. وهو مخرج للوط عليه السلام من كل الأوجه المذكورة.

ثم يعزز لوط عليه الصلاة والسلام دعوته لهم بالزواج من النساء، لما فيه من التنزه عن فعل الفاحشة ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أي: في الزواج من النساء تنزهاً عن مالا يحل لكم. ثم خوفهم بعذاب الله تعالى ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فاتقوا عقوبة الله تعالى لمن يعصيه ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ فلا تُلحقوا بي الفضيحة والإهانة في ضيفي، وتجعلوني في موقف العصيب، فيهلككم الله تعالى بهذه الإرادة الباطلة وبهذا الفعل الشنيع. فهي جملة معبرة عن عمق ما أصاب نبي الله تعالى من هول ما جاء له قومه، مما يبين أن لوطاً حتى هذا الموقف لم يكن يعرف بأن ضيوفه ملائكة من عند الله تعالى، وأنهم أتوه على هيئة بشر، وإنما اعتقد أنهم أضياف مارين بقريتهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٢/١٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥١/٩)

ثم يتوجه إلى قومه بسؤال يستثير فيهم التعقل ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ألا يوجد من بينكم رجل واحد راشد بعقله وفكره، فيرشدكم إلى الصواب، ويمنعكم عن إرادتكم السيئة؟ وهي هذه الإرادة الدالة على سفاهة عقولكم. فهي جملة استثارة للتعقل والتفكر، مع البيان أن فعلكم هذا ليس من فعل الراشدين العقلاء، بل هو فعل من طار صوابه عنه، فلعله بهذا يستنهض أحداً منهم. ولكن ردوا عليه ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ فجاهروا بما هو معروف عنهم من إتيان الفاحشة، فإنه لا يخفى عليك يا لوط أنك تعرف مرادنا من مجيئنا إليك، بأننا نريد ضيوفك، وليست لنا حاجة في النساء، وإنك لتعلم أننا نريد الرجال، بل من قبحهم أنهم أكدوا بأن الأمر معلوم عندك ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ ثم أكدوه مرة أخرى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ مما يدل على أنهم نزعوا الحياء من أنفسهم تماماً. وهنا ذكر لهم لوط عليه السلام امتناعه، مع بيان عدم قدرته على مواجهة قوتهم ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ فلو أن لي قدرة من قوة المناصرين لي، لبطشت بكم، فهي أمنية له عليه السلام تلك اللحظة، بأن تكون له قوة من الأنصار يدفعون هؤلاء الفاسدين المارقين.

وقد وردت كلمة القوة مطلقة، لتشمل الجماعة التي يتقوى بها الشخص، وأي قوة أخرى يستطيع أن يدفعهم بها، ولكن قوة الله تعالى أقرب من القوة المادية البشرية، ثم أكد لهم أمره وامتناعه بما يتمنى أن يحصل عليه وهو ﴿ أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أو لو أستطيع أن أعتصم وأنظم إلى عشيرة أو جماعة لمنعتكم بهم، وحُلْتُ بينكم وبين مرادكم الخبيث. مما يدل على قوة الكرب الذي كان فيه لوط من قومه الذين أرادوا السيئات بأضيافه.

ولما سمعت الملائكة ما كان من لوط وقومه، وهم على باب داره، والكرب الذي حَلَّ به عليه السلام، بادروه بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ فقطعوا أمر الخوف عليه من هؤلاء المفسدين، ببيان أنهم ملائكة وليسوا بشراً، وأنهم لن يستطيعوا الوصول إليك بأمر يسوء ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ فبادروه بندائه ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ ﴾ بما يفيد شد الانتباه، وإرعاء سمعك لنا، بدلاً منهم، ثم أكملوا مباشرة كلامهم له عليه السلام ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ بما يفيد أنه ممتنع عليهم ذلك. ثم أكدوا له أمر تحقيق الامتناع من أن يصيبك منهم سوء ﴿ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ فأكدوا له أنهم لن يصلوا إليك بسوء. وبالتالي لن ينالوا من أضيافك بما تخاف منه. بما يفيد ضمان سلامتك منهم، فاطمئن بالسلامة الكاملة، وفي هذا

دقة الإعجاز البياني الذي استوفى دقائق المقصد والمراد، بأقل الألفاظ التي يحتاج إلى سرعتها من هو في موقف الخوف والوجل والكرب العظيم. فطمس الله تبارك وتعالى أعين هؤلاء الظالمين كما جاء في سورة القمر ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ ﴾ فَصَيَّرَ الله أعينهم ممسوحة لا ترى شيئاً، فانشغلوا بعيونهم عن كل أمر. وفي قولهم ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ أي: إنا مُرْسَلُون من ربك إليك، وفي هذا تكريم وتشريف لنبي الله تعالى لوط، إذ نعتوه بإضافته إلى ربه ﴿ رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ أي: مرسلون من ربك إليك، ليدل على أنك في حفاوة من ربك، ومنزلة كريمة. فبدلاً من أن يقولوا: إنا رُسُل الله إليك، أو إننا رُسُل ربنا، قالوا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما في ذلك من دقة المقصد في اختيار السياق، ليبين الإعجاز اللفظي في كتاب الله تعالى.

ثم زادوا لوطاً عليهم السلام طمأنينة بما هو مطلوب منه، وبما سيكون عليه، فأعلموه بأدق التفاصيل ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: اذهب بطائفة من الليل، لأن السري يكون في الليل ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ وخذ معك أهلك أثناء سريك ليلاً ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ فليكن سريك بأهلك آخر الليل، عندما ينقطع بعض أجزائه الأولى، ثم وجَّهوه بأمر دقيق أثناء السير ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي: لا تلتفتوا للمكان الذي أُمروا بمغادرته، أي: الجهة التي تغادرونها، وتمشون منها، فلا تلتفتوا إليها. قال مجاهد ومقاتل رحمهما الله تعالى عن معنى الالتفات، أي: الالتفات المعروف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتخلف منكم أحد[١] فجمع السياق دلالتين، عدم الالتفات للخلف، لما فيه من رؤية العذاب بقومهم، ولما فيه من التأخر في السير، ولا يتخلف منكم أحد، ثم يأتي بعده الاستثناء من هذا التوجيه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ فاستثنت الملائكة من أهله امرأته من النجاة من العذاب، فإنه مصيبها ما أصابهم، فأُمِر بتخليفها مع قومها، وكذلك يأتي المعنى على القراءة برفع التاء في ﴿ ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بمعنى: لا يلتفت من أهلك أحد إلا امرأتُك، فتلتفت فيصيبها ما أصاب قومها من العذاب، فتهلك معهم، فقد ذكره ابن جرير الطبري وغيره من أهل التفسير رحمهم الله تعالى[٢] وفي كلتا الحالتين هي مشمولة بالعذاب لكفرها. ففي بقائها هلاكها، وفي التفاتها هلاكها، بالفزع مما ترى من هول العذاب.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١١/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٥/١٢)

ثم بينت الملائكة عليهم السلام موعد العذاب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فإن موعد قومك مع العذاب هو صباح تلك الليلة، ولم يُذكر هنا لفظ العذاب، لأنه معروف من السياق، الذي اشتمل على السري ليلاً، واستثناء زوجته، بأنه مصيبها ما أصابهم، فلم يتكرر، وهذا من دقة البيان وبلاغته المتناهية. ثم أكدوا ذلك بأن الصبح ليس ببعيد ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ سؤال تقريري، تقرر به الملائكة أن الصبح قريب، وقد اقترب هلاك القوم الظالمين المسرفين. ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فلما جاء قضاء الله تبارك وتعالى بعذابهم وهلاكهم ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعل الله تعالى عالي القرية سافلها، أي: أن القرية انقلبت انقلاباً، فأصبحت أعالي البيوت سافلاً، وذلك لانقلاب القرية بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ وأرسل الله تعالى عليها من السماء ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: حجارة من طين، وقيل من معاني ﴿سِجِّيلٍ﴾ شديد صلب، وصفة هذا الطين من حيث الشكل ومن حيث صفة الوقوع فإنه ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: جُمع فَجُعِل حجارة متتالية، متتابعة، فيتبع بعضها بعضا، أي: موضوع بعضه على بعض، وذكر القرطبي رحمه الله تعالى دلالة فقهية من ذلك، بأنه: دليل على أن من فعل فعلهم، حُكْمُهُ الرجم[1] وقد وصف الله تعالى نزولها من السماء بالمطر، سواء في كثرتها أو في تتابعها، ليتبين شدة ذلك العذاب، الدال على شدة كفرهم، وكذلك شدة فسادهم ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: مُعَلَّمَة، عليها علامة من عند الله تبارك وتعالى، فهي مُعَدَّة عند الله عَزَّ وجل، إيذاناً بنفاذ أمره، وشدة عذابه سبحانه وتعالى لهم، وإمعاناً في بغض الله تعالى لهم، وإهانة لهم، ولما كانوا يعملونه من الفاحشة العظيمة في جرمها وبشاعتها.

ثم يشير البيان الكريم بالعذاب إلى قريش ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وفي هذا تهديد لكفار قريش، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإنه يقول تعالى ذكره، متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمْطَرتُها على قوم لوط من مشركي قومك يا محمد ببعيد أن يُمْطِرُها، إن لم يتوبوا من شركهم[2] وفي هذا بيان لعظيم قدرة الله تعالى، وموعظة لكل مشرك وكافر ما بقية الدنيا، لتكون عبرة لمن يتعاظم على الله تعالى.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٥٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣١/١٢)

ومن رحابة وسعة دلالة النص الكريم أنها تتضمن دلالتين إضافيتين، هما: أنها عام في كل ظالم، قال قتادة: والله ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر. وكذلك تأتي دلالتها على أنهم قوم لوط، قال الفراء عن دلالة قوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: من قوم لوط ببعيد، لم تكن لتخطئهم(١) وهذا الاستيعاب في النص لتلك الدلالات، يبين الإعجاز البياني في غزارة المعطيات الدلالية للقرآن الكريم، فإن تعدد الأوجه التي يحتملها النص هو إعجاز في حد ذاته.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾
وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ
﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا
مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا
ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم
مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ
وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٤/٤)

وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

وينتقل سياق الوعظ إلى بيان قصة أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾ وشعيب هو بن ميكيل بن يشجر، وتطلق مَدْيَن على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة(١) قال قتادة: مدين: ماء، كان عليه قوم شعيب، وقال: مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه(٢) ووصَفَهُ اللهُ تبارك وتعالى بأنه ﴿ أَخَاهُمۡ ﴾ كما وصف رُسُلَهُ هود وصالح من قبل، بأنهم إخوة لأقوامهم، فهو أخوهم، باعتبار أنه بشر مثلهم؛ من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم، لأنه من قومهم. وابتدأ شعيب حديثه لهم بياء النداء للتنبيه وزيادة الاهتمام، وكذلك بصيغة الانتماء ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ لما فيها من التلطف، وما تحمله من معاني الخير ومحبته لهم، وحرصه عليهم، وكراهية الشر لهم، والتواضع وعدم الاستعلاء، مما يفيد أن مسلك الأنبياء كان مسلكاً رفيع المستوى الأخلاقي والدعوي، فيقدم النموذج والقدوة للداعي والناصح والمعلم للخير. ثم يوجههم إلى ما يجب عليهم تجاه ربهم وخالقهم.

وابتدأ شعيب عليه الصلاة والسلام قومه بقضية توحيد الله تعالى بالعبادة ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ فاستهل كلامه لهم بتوجيههم إلى عموم العبادة، بأن تصرف لله تعالى، معللاً ذلك بأمر التوحيد، وهو توحيد الله تعالى، ونفي كل معبود غير الله عَزَّ وجل ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ فليس لكم رب وإله تعبدونه وترجونه وتخافونه إلا الله تعالى، ثم انتقل إلى ما هو شائع عندهم من التطفيف في الموازين والمكاييل، والتلاعب بها على الناس ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ وهذا نهي عن إجراء النقص عند البيع، في المكيال، وفي الميزان. ليكشف ما كان من عاداتهم، حتى أصبح شائعاً عندهم. وقد جمع لهم النص الكريم جميع ما يُكال بالمكاييل، وجميع ما يُوزن بالموازين، ثم يخبرهم ويذكرهم بما أنعم وجاد به الله تعالى عليهم من الخير الذي يستوجب منهم الوفاء في المكاييل والموازين ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ ﴾ بما يؤكد لهم به أن فعلكم هو فعل تعدي، متجاوزين ما أنتم فيه من الخير، بما يفيد قد تحققت لكم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٥٥)

موجبات الوفاء. وبالتالي تحقق في تطفيفكم الظلم، بل وقصده عنوة، والإصرار عليه، وأفادت دلالة كلمة ﴿أَرَىٰكُم ﴾ شهادته عليهم بأنهم في سعة وخير من الله تبارك وتعالى، مما يدل على قبح ما تقومون به من التطفيف، فإذا كان التطفيف قبيح مع ضيق الحال، فإن قبحه يتعاظم مع سعة الخير الذي أنتم تعيشونه، مما يدل على عظيم الجرم، ودناءة النفس وخساستها، وانعدام الأخلاق.

ثم ينتقل ويتدرج بهم بعد تحليل واقعهم، وعدم انسجامه مع ما أنعم الله تعالى به عليهم لينتقل إلى الترهيب والتخويف من عاقبة هذا الفعل الشنيع ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ وكلمة ﴿أَخَافُ ﴾ التي صدرت من شعيب، تحمل الإنذار، وتحمل البعث على روح الود لكم، وحرصي عليكم من أن ينالكم العذاب من الله تعالى، وسَمَّى اللهُ تبارك وتعالى هذا العذاب ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ فاستوعب ثلاث دلالات: أنه غلاء السعر. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مجاهد: القحط والجدب والغلاء، والدلالة الثانية: العذاب في الدنيا، وهو الذي أصابهم، قاله مقاتل، والدلالة الثالثة: عذاب النار في الآخرة، ذكره الماوردي[1] فهذا بيان وتحذير وتهديد من الله تعالى، بأنه قد يصيبهم القحط والجدب، وتحصيل العذاب في الدنيا، ثم تحصيل عذاب الآخرة، فيحيط بهم العذاب في حياتهم الدنيا والآخرة.

ويستمر شعيب في نصح قومه، مبتدئاً بالنداء ﴿ وَيَٰقَوۡمِ﴾ للتنبيه وزيادة الاهتمام، مع استثارتهم للحق بالتلطف معهم، فيخاطبهم بما يجمعهم، فيقول ﴿ وَيَٰقَوۡمِ﴾ وهذا هو مسلك أنبياء الله تعالى: نوح وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام. ثم يأمرهم باستيفاء المكاييل التي يكيلون بها، والموازين التي يزنون بها ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ ففي الآية السابقة كان ينهاهم عن نقصها، وهنا يأمرهم باستيفائها، ليؤكد لهم وجوب استيفاء الكيل والوزن، فالأول: لكشف الخطأ، وتعينه، والثاني: لعلاج الخطأ بالاستيفاء الكامل. وربط الاستيفاء بالوفاء الكامل ﴿أَوۡفُواْ ﴾ الذي هو كمال الوفاء، بأن يكون ﴿بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ وهو العدل، بما يدل على أن نقيضه ظلم وجور.

ثم انتقل بهم إلى التعميم في استيفاء العدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ ليستوفي عدل التعامل مع الناس في كل شأن وأمر، فلا تنقصوهم حقوقهم كافة، لأن بعض الحقوق لا يمكن كيلها ولا وزنها، كالحقوق في التعامل والتقاضي، وعموم الأخلاق، التي لا يمكن حصرها. وهذه من دقائق النصح، والتي

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٤/٤)

تدرج فيها شعيب عليه السلام من النهي، إلى الأمر، ثم التعميم. ثم تدرج إلى النهي عن عموم الفساد ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ فلا تسعو في الأرض مفسدين بالمكاييل والموازين، وبخس الناس حقوقهم المختلفة، وغيرها من عموم الفساد، فلا يكن ذلك سجية وسمة لكم، تتصفون بها، وتُعرفون بتميزكم فيها.

ثم يحفزهم ويدفعهم ويشجعهم على ذلك بما يبقيه الله تعالى لهم بعد إيفاء الحقوق بالقسط، فإنه أكثر بركة، وأفضل عاقبة مما تبقونه لأنفسكم من زوائد التطفيف ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فما أبقى الله تعالى لكم من الحلال بعد استيفاء الكيل والوزن بالقسط خير لكم مما بقي بالبخس، فإن رزق الله تعالى وبركته خير لكم من التطفيف المحرم الذي لا بركة فيه، وأن طاعة الله تعالى خير لكم من معصيته، وأنكم باستيفاء حقوق الناس تحصلون على ثواب الله تعالى، الذي هو خير لكم مما أبقيتم من البخس. فإنه يلزمكم مراقبة الله تعالى لتحصلوا على بقية الله تعالى.

ثم يبين لهم أن التزامهم يكشف لهم إيمانهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فإن كنتم مؤمنين مصدقين بما أُرسلت به إليكم فأوفوا مع الناس حقوقهم في الكيل والموازين وفي غيرها، فإن هذا محك اختبار لكم، لتحصلوا على ما تضمنته ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ ثم يوجههم إلى أن يحاسبوا أنفسهم بأنفسهم، من خلال نفي أن يكون هو رقيب عليهم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ فلست مأمور بمراقبتكم عند كيلكم ووزنكم، وفي عموم تعاملاتكم، ولكن الله تعالى رقيب عليكم، ولست بِمُكْرِهُكم ومقاتلكم على ذلك، وعلى الإيمان، وبالتالي فلست بحافظ لكم من عذاب الله تعالى.

فشملت ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ المنهج الذي يغرس في الغير محاسبة النفس، وأن لا يكترث برؤية غيره له من الخلق، والخوف من محاسبته له، وكذلك بينت أن المنهج الأصوب هو التربية على الإيمان، وأن الرقيب من الناس لا يمكن له أن يستوفي مشاهدة ومحاسبة المخالفين، وأن أعظم مرتكز هو تربية التقوى، ليكون السلوك نابع من مخافة الله تعالى، ورجاء ثوابه وكريم عطائه. وهي قاعدة عظيمة في التربية والتوجيه، حتى في نطاق الأسرة ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ فالمهمة منوطة بالتربية والتوجيه، وقائمة على أداء المسؤولية التربوية، لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان حفيظ على جميع حركات وتصرفات غيره.

وجملة ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ قاعدة عظيمة في تربية النفس على طاعة الله عَزَّ وجل، وعلى مواجهة ما يعتريها من طمع أو بغض وكره لأحد. فإن أراد أن يطفف في الكيل والميزان،

قال لنفسه ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن تمكن من أن يظلم أحداً، ردع نفسه بقوله لها ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن تمكن من الحصول على ما تطمع إليه نفسه بغير وجه حق، عالج أمره بقوله ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن دفعته شهواته لإتيان أمراً محرماً، أوقفها بقوله لنفسه ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن رأى بخساً أو مطففاً أرشده ونهاه بقوله ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنها قاعدة عظيمة في البيت والمدرسة، وفي السوق، وفي جميع تعاملات الإنسان مع غيره في جميع أنواع سلوك الإنسان في بيته ومتجره، وإدارته، واجتماعاته المختلفة.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما رَدَّ به قومه عليه ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فبدأوا بمناداته ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ﴾ للفت الانتباه إلى ما سيقولونه لرسولهم من كلام، فبدأوا بالسؤال عن سر وأسباب نهيه لهم عن ترك عبادة الأوثان، وعن ترك التطفيف ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ فهو سؤال استنكار منهم على شعيب. فهل صلاتك تأمرك أن نترك عبادة ما كان يعبده الآباء من الأصنام والأوثان، مما يدل على أن الصلاة كانت من العبادات التي يؤديها شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو سؤال استنكار منهم على نهي شعيب لهم عن عبادة الأصنام.

ثم أضافوا إلى الصلاة، ما نهاهم عنه شعيب عليه السلام من التطفيف في المكاييل والموازين ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾ فهل صلاتك تأمرك أن لا نتصرف في أموالنا كما نحب ونشاء؟ ففي منظورهم أن الإنسان يتصرف في ماله مع غيره بما يراه، من غير التزام بالقيود والضوابط التي تحقق العدل، وتمنع الظلم والفساد، بمعنى حرية التعامل بلا قيود، ثم عللوا استنكارهم بسؤال يحمل التهكم والاستهزاء أيضاً ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فقالوا لشعيب عليه السلام من باب الاستهزاء، هل أنت الحليم الرشيد؟ فإنه لا يستقيم نهيك هذا، وتدخلك في تصرفاتنا مع صفة الحليم، ذو العقل، والرشد الذي يُحسن تدبير المال وغيره. فنهيك هذا لا يتوافق مع من مواصفات الحليم الرشيد. فجعلوا عقولهم حكم على عقله ورشده. وهنا تبرز خطورة

مبادرة أهل الباطل لأهل الحق والصلاح بوصف مسلكهم بأنه لا يتوافق مع ما هم عليه من العقل أو التقنين الظالم أو نحو ذلك. أي: نفي التعقل والرشد عن من خالف الباطل الذي هم عليه.

فيرد رسول الله شعيب عليه الصلاة والسلام برد العاقل الراشد الحليم، كما قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ فبدأهم بمناداتهم بما يُوَحِّد انتماءهم وتَطِيب به قلوبهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ ثم وجه لهم سؤالاً، يقرر به حقيقة دعوته ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ أرأيتم لو كنت على حجة وبرهان من الله تعالى فيما أدعوكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة الأصنام، وفيما أنهاكم عنه من الجور والتطفيف في المال، ثم يتدرج بهم إلى ما يخصه عليه السلام من الرزق ﴿ وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ﴾ ورزقني من المال والخير رزقاً حلالاً طيباً، وقارن طلبه منهم، ونصحه لهم مع ما هو عليه، بطريقة التعريض، بأني لا أطفف في الكيل والميزان، ولم ينقص مالي بوفائي للكيل والميزان، فتأملوا فيما أعطاني الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان شعيب عليه السلام كثير المال[1]

ثم بين لهم توافقه في سلوكه مع ما ينهاهم عنه، فقال الله تعالى عنه عليه الصلاة والسلام، أنه قال لهم ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ فما أريد أن أنهاكم عن أمر، ثم أعمل بخلافه، وإنما آمركم بما أعمل به، معلناً لهم توافقه مع ما ينهى عنه. ثم يبين ويوضح هدفه من ذلك ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ ﴾ فمرادي على الإجمال هو تحقيق صلاحكم فيما آمر به وأنهى عنه، ثم ربط ذلك بالاستطاعة ﴿ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ ﴾ وفي ربط تحقيق أهدافه بالاستطاعة، ليتحقق به أمرين: الأول: سأبذل جهدي وفق وسعي وطاقتي، ولست مكلفاً بإرغامكم على ما أوجهكم إليه، والثاني: نفي استخدام أي وسيلة أخرى تتنافى مع الاستطاعة كالقوة مثلاً.

ثم يبين لهم ركائز التوفيق، وأنها منعقدة بالله تعالى ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ وما رشدي وإصابتي للحق، إلا بالله تعالى، وفي هذا حصر توفيقه أنه من الله تعالى فقط ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وفي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٦٠)

هذا بيان لأهمية حصر التوفيق والنجاح، وتحقيق المقاصد أنها بتوفيق من لله تعالى، فيلزم طلبها من الله تعالى، بسؤاله إياها. وأن يتخلص من الحول والقوة إلا بالله تعالى ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ فقد اعتمدت عليه سبحانه وتعالى، وفوضت أمري إليه ﴿ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ وإليه أرجع وألجأ، وهي شاملة فما ينزل به، وما يتعلق بالدعاء، وكذلك في العودة إليه في الآخرة. فركائز التوفيق هي: الاعتقاد الجازم بأن التوفيق من الله تعالى، وأن يطلبه الإنسان بالدعاء، والامتثال في الطاعة، والثاني: التوكل عليه عَزَّ وجل، والثالث، الإنابة إليه، بالرجوع واللجوء إليه جَلَّ جلاله.

ثم يعضهم بما يعرفون ويعلمون ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ ﴾ فيا قومي لا تكسبكم عداوتكم إياي أن تُدخِلُوا أنفسكم فيما دخل فيه قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، فلا يحملنكم بغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ وما حادثة عذاب قوم لوط عنكم ببعيد، سواء من حيث المكان أو من حيث زمن الوقوع، فشملت الجملة الكريمة بسياقها الزمان والمكان. وفي هذا موعظة جليلة من كل وجه، حيث عاد بهم إلى أثر البغض، ومنعه وصده عن الحق، فذكرهم بذلك، حتى لا ينحصر ويتقوقع فكرهم في ذلك، بل عليهم أن يتجاوزوه إلى طلب الحق، ثم يعظهم بحوادث من سبقهم من الأقوام، ويشد عقولهم وعواطفهم بأقرب الحوادث، الذي تمثلت في قوم لوط. مما يبين أهمية التسلسل والتدرج في الخطاب، واهمية التذكير، واستثمار الحوادث في المواعظ والتنبيه والتذكير بها، فإن أثرها في النفوس قائم، إلا من أبى واستكبر.

ثم يرشدهم لمنهج القبول، وخطوات الاستقامة ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ أي: أدلكم وأرشدكم إلى الاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة إلى الله عَزَّ وجل منها، والعزيمة على الاستقامة فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك.

والاستغفار يعني: رجاء محو ما سلف من الذنوب، وعدم المؤاخذة عليها. وأما التوبة فهي: إقلاع عن الذنب، وعزيمة على عدم العودة إليه. وفي الجمع بينهما ما يدل على دقة المقصد، أي: الاستغفار والتوبة. كما أن التوبة منهم يلزمهم ترك الشرك، وأن يؤمنوا به عَزَّ وجل، ويوحدوه، ويعبدوه، ويطيعوه فيما أمر، وينتهوا عما نهى عنه عَزَّ وجل. فأرشدهم إلى ما ينصلح به شأنهم في الدنيا وفي الآخرة، بأن يطلبوا من الله تعالى محو ذنوبهم، وسترها، وعدم المؤاخذة عليها، فاستغفارهم فيما لو استغفروا ربهم دليل على أنهم أقلعوا عن الشرك، ووحدوا الله تعالى بإيمانهم به، وتوحيده بصرف العبادة له وحده لا شريك له سبحانه وتعالى، وعدولهم عن التطفيف في المكاييل والموازين.

وفي توجيههم إلى التوبة بعد الاستغفار ما يحقق العزيمة على تركها حاضراً، وعدم العودة إليها مستقبلاً، والندم على ما فات وسلف من الشرك والتلاعب بالموازين والمكاييل وغيرها من المعاصي. وفي ترتيب التوبة بعد الاستغفار بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ ما يفيد أن التوبة تكون بعد الاستغفار. ثم رَغَّبَهُم في الاستغفار والتوبة ببيان ما تدل عليه أسماء الله تعالى وصفاته ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ اسمان من أسماء الله الحسنى، تبين رحمته عَزَّ وجل، وكذلك أنه محب لعباده، فيغفر الذنوب ويسترها، ويقبل التوبة، ويرحم من استغفر ثم تاب، لأنه يحب عباده سبحانه وتعالى.

فإن ربكم جَلَّ جلاله ﴿ وَدُودٌ ﴾ أي: أنه المحب لعباده، والمتودد لهم، فيغفر الذنوب ويسترها، ويقبل التوبة، ويرحم من استغفر ثم تاب، لأنه يحب عباده سبحانه وتعالى. وهو المتودد إلى عباده بإكرامهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الودود: أي: المحب لأوليائه، وروى الضحاك عن ابن عباس: قال: كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. وعنه أيضاً: الودود المتودد إلى أوليائه بالمغفرة[1] وقال السعدي رحمه الله تعالى: الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء. فكما أنه لا يشبهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولذلك كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها[2] فاستوفت دلالة ﴿ وَدُودٌ ﴾ كمال العلاقة بين مودة الله تعالى لعباده، ومودة محبيه له جَلَّ جلاله.

وقد أفاد سياق قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أنه هو سبحانه وتعالى المتفرد بكمال الرحمة والمحبة لعباده، والمحب لأوليائه، وليس ذلك لغيره. كما أفاد سياقها المبالغة في الرحمة، والمبالغة في التودد، فهو الرحيم الذي يرحم ولا يبالي، وهو المتودد بالعطاء ولا يبالي، فاستغفروه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود.

ويخبر الله تعالى بردهم على نبيهم شعيب ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ فبادروه بما يفيد: أنك قد أكثرت علينا بما لا نفهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ فيا شعيب لا نفهم ولا نعقل الكثير مما تقول، وهو تعبير عن استثقالهم ما جاءهم به نبي الله شعيب عليه السلام، وبما يعني أنك أكثرت علينا، فهو مطلع وبداية إنذارهم له عن عدم رغبتهم فيما يدعوهم إليه، وفيه تحديهم لرسول الله شعيب عليه السلام، مؤكدين ذلك

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٥)

(٢)السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٩٧)

التحدي بإعلانهم ومجاهرتهم له بأنه ضعيف فيهم ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ ذكر الشوكاني في معناها: أي لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكن بها من مخالفتنا[١] قيل كان أعمى، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه، قال: كان أعمى. وقيل ضعيف البصر[٢] والأول أولى. فنظروا إلى الجانب الجسدي، ولم ينظروا لمحتوى الدعوة، وصدقها، ثم تدرجوا إلى تأكيد تحديهم بأن ما يمنعهم منه هو مهابتهم لجماعته، وإلا أنت فلا مهابة لك عندنا، ولا قوة لك في ذاتك تمنعنا عنك ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ ولولا عشيرتك، التي تستند عليها وتتقوى بها لقتلناك برجمك بالحجارة. وتأتي بمعنى الشتم، الذي يفيد التعدي عليك بالإهانة، ثم زادوا في شرهم له ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ فلست ممن يُكرم ويُعز، فيعظم علينا إذلاله، فلست علينا بغالب ولا قاهر، ففندوا لشعيب أسباب استضعافهم له، وهي من الحروب النفسية التي يريدون منها إضعاف عزيمته، وتخليه عن رسالته. فقد حَسَبُوا الأمور بمقاييسهم البشرية فيما بينهم. وهذا يبين قوة ما كان يعاني ويواجه الأنبياء من أقوامهم. ولذلك كانت هذه السورة مما شيبت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، قد شبت، قال عليه الصلاة والسلام (شيبتني هود والواقعة والمرسلات، و ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾)[٣]

فيرد عليهم بما وهب الله تعالى رُسُلَه من الصبر والحلم والحكمة في التعامل ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلا يزال يخاطبهم بأحسن الخطاب ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ بالرغم مما ذكروه من شنيع الخطاب والوصف إلا أنه يخاطبهم عليه السلام بجميل الألفاظ ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ ثم يعرض عليهم أمراً مهيباً في صورة تساؤل ﴿ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ هل مراعاتكم لرهطي فيما أتيتكم به من ربكم أعز عليكم؟ فهل قومكم أعز وأعظم وأجل عليكم من الله تعالى؟ سؤال يستنهض العقول، والفكر ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ فاتخذتم ما جئتكم به من عند الله تعالى وراء ظهوركم، فلم تهتموا ولم تأبهوا به. فامتنعتم عن قتلي مخافة قومي، وليس مخافة غضب الله تعالى عليكم، ففي هذا الخطاب استنهاض للعقول والتفكر ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٢٠/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٣/١٢)

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح (٣٧٥/٥) برقم (٣٢٩٧)

﴿ مُحِيطٌ ﴾ إن ربي عليم بما هو كائن منكم ومني، ومن كل شيء، وهو حفيظ، يحفظ من يشاء من عباده، ويصيب بالعذاب من يشاء من عباده. فرَدَّ شعيب عليه الصلاة والسلام الأمر لله تعالى، وفيه ترهيب وتخويف وإنذار من عقوبة الله تعالى ببيانه لجلال أسمائه، وعظمة صفاته سبحانه وتعالى.

ويزيد شعيب عليه السلام في تنبيه قومه وتحذيرهم مما هم فيه من التعالي والكبرياء بأحسن الأساليب وأكملها لطفاً، وبياناً وحجة وبرهاناً، فيبدأهم بتكرار مناداتهم بصفة الانتماء الذي يجمعهم ﴿ وَيَٰقَوْمِ ﴾ عطفاً على ما سبق من النصح، وامتداداً له. فيقول لهم على سبيل الإنذار ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ فإن كنتم متمكنين من سداد رأيكم، وحالكم الذي أنتم عليه فاعملوا بمنهجكم وطريقتكم على ما تمكنتم من أمركم الذي أنتم عليه، واثبتوا عليه إن شئتم، فإني عامل بما أنا عليه من منهج الله تعالى الذي أمرني به عَزَّ وجل، فلست مبالي بكم، ولا مكترث بما أنتم عليه. وهذا نوع من التحذير مما هم عليه، مع التهديد والتحدي، وإظهار القوة. وقد جمع لفظ ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ جميع أجزاء طرائقهم المختلفة في معاداتهم ومكائدهم لدين الله تعالى، ولرسول الله شعيب عليه الصلاة والسلام، من تكذيبهم وتحقيرهم له، والاستخفاف به، كما جمعت جملة ﴿ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ أمرين عظيمين: الثبات، والقيام بتنفيذ منهج الله تعالى، ومنها الدعوة إليه. وهذا غاية الحسن والبيان البلاغي الذي استجمع المراد المتنوع والمتعدد بأقل الألفاظ، وأجزل الكلام.

ثم يلي هذا التحدي وهذا البيان توعدهم وتهديدهم بأسلوب المتحقق من النتيجة والمآل ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ فسوف ترون ما يتحقق به علمكم، مَنْ هو الذي يستحق العذاب الذي يخزيه الله تعالى به، فَيُهِينُه ويرديه هالكاً، فتعرفون من الذي تحقق فيه الكذب منا. ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ فترقبوا من يصيبه العذاب، ويتحقق فيه الوعد. وبالرغم من أن شعيب عليه الصلاة والسلام سينتظر فعلاً، إلا أن انتظاره، هو انتظار الواثق بالله تعالى أن النصر له، والهزيمة والهلكة لأعداء الله تعالى. وأما انتظارهم، فهو مشمول بالخوف والترقب، والذي سيكون مآله الخزي والإهانة والهلكة.

ثم يخبر الله تعالى بحالهم عندما قضى أمره بهلكتهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي: فلما جاء قضاء الله تعالى في قوم شعيب بالعذاب ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

مَعَهُۥ ﴾ أنجا الله تعالى شعيباً عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه، بإبعادهم عن العذاب وموطنه ﴿ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ أي: بلطف من الله تعالى اللطيف الخبير الحكيم. فقد نجا الله تعالى نبيه ورسوله شعيباً عليه السلام ومن آمن معه برحمته الكائنة منه عَزَّ وجل، حيث نسب سبحانه وتعالى الرحمة والنجاة منه، لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى وبفضله وامتنانه على من يرحمه.

ثم يخبر الله تعالى أن عذابهم كان بالصيحة التي أهلكتهم، فجعلتهم خامدين ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ فأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء، فأخمدتهم وأهلكتهم، لكفرهم بربهم، وقيل إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة، أخرجت أرواحهم من أجسامهم ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ فأصبحوا على ركبهم صرعى بأفنيتهم[1] ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ ﴾ كأن لم يعيشوا فيها، ولم يتمتعوا بها، ولم يغتنوا بما أغناهم الله تعالى فيها من الخير. فقد أهلك الله تعالى قوم مدين كما أهلك قوم ثمود، وقد بدأ الله تعالى وصف طردهم من رحمته بأداة التنبيه ﴿ أَلَا ﴾ بما يشد الانتباه إلى ما يستحقون من الوصف والطرد من رحمة الله تعالى، وإظهار شدة بغض الله تعالى لهم ولمن قبلهم من الكافرين. ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾ ألا بُعداً من الله تعالى لمدين من رحمته كما أبعد ثمود من قبلهم عن رحمته، بإنزال غضبه وسخطه عليهم. ليكون ذلك موعظة لمن نزل فيهم القرآن من أهل مكة وغيرهم، ولمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

ينتقل البيان من الله تعالى إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملائه ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ يخبر الله تعالى أنه أرسل رسوله موسى عليه السلام بالحجج والبراهين البينة الواضحة، التي لا نزاع في حجيتها وقوة برهانها، بأن موسى عليه الصلاة والسلام هو رسول الله تعالى، وأن التوراة حق لا جدال في ذلك البتة. وأن الله تعالى واحد أحد في ربوبيته وألوهيته وأنه خالق الكون ومدبره.

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٥٥٩-٥٦٠)

وقد استفتح الله تعالى البيان بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بعثنا رسولنا موسى بن عمران عليه السلام بالحجج والبراهين القاطعة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: بأدلتنا التي تُثبت أنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى، وهي التسع الآيات البينات كما وردت في سورة الإسراء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ وهي: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات. فهي آيات تبهر العقول، وكذلك زوده الله تعالى بسلطان الحجة ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وهي الحجج والبراهين البينة الواضحة التي تهزم وتغلب كل من يعارضها. وكذلك هي السلطة التي بها قد امتنع أن يلحقه الأذى من فرعون وأعوانه، فهي سلطة ربانية، قد تغلب بها عليهم. فسجود السحرة حجة، وذلك عندما التهمت عصا موسى حبالهم وعصيهم، فكان ذلك الحدث سلطان واضح بأنه رسول من الله سبحانه وتعالى. فهي تشمل الوقائع التي يقهر بها الله تعالى المكذبين.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه بهذه الحجج والأدلة البينة ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ فلم يتبع فرعونُ نبيَّ الله تعالى موسى، بل كفر بالله تعالى وبرسوله موسى عليه السلام، وتبع فرعون في ذلك الملأ من قومه ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ فقد اتبعه أعوانه وجلساؤه الذين معه، وبقية قومه، فسلكوا مسلك فرعون ومنهجه في الكفر بالله تعالى وبرسوله موسى عليه السلام، فكفروا بما جاءهم به موسى عليه الصلاة والسلام، مما يدل على أثر الكبراء على جلسائهم.

ثم يخبر الله تعالى بما يفيد الاستنكار على هذا الملأ في اتباعهم فرعون، مع وضوح بعده عن الرشد والتعقل والصلاح، وأن رفضه لما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام من الحجج العظيمة لا يتوافق مع الرشد ومسلك الحق ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ فشأن فرعون في الكفر بعيد عن الرشد، ومفارق ومعارض له تماماً، فالحق في جهة وأمر فرعون في جهة أخرى. فليس في أمره صلاح ولا حق، ولا خير، بل يُورده ومن معه إلى جهنم وبئس المصير. فكيف يتبعه الملأ من قومه، وهذه حاله الواضحة البينة؟ وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أمرين: الأول: وصف لأمر فرعون، وحكم عليه بعدم الرشد. والثاني: استنكار على كبرائهم وحاشيته من اختيارهم ضلال فرعون أمام الحق الذي جاء به نبي الله موسى عليه السلام.

ومن دقائق مقاصد البيان تكرار ورود اسم فرعون ثلاث مرات في الآية الكريمة، بما يفيد التشنيع والتشهير به، لما له من أثر على قومه، وصده لبني إسرائيل عن اتباع موسى عليه الصلاة والسلام، ومحاربته لدين الله تعالى. فإن من دقائق البيان الكريم هو اختيار صيغة المبالغة في نفي الرشد عن أمره، فكلمة ﴿بِرَشِيدٍ﴾ من قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أفادت المبالغة في بُعدِه عن الرشد، وأوضحت أن امر فرعون ليس برشيد البتة، وليس فيه شيء من الرشد، فإن انتفاء الرشد منه هو انتفاء لا شبهة فيه، فأصبح أمره سفهاً محضاً.

ثم أخبر الله تعالى بحاله يوم القيامة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فيأتي فرعون يوم القيامة، في مقدمة قومه، كقائد لهم، فيقودهم، ويمضي بهم إلى النار، كما كان قائداً لهم في الدنيا إلى الكفر والضلال. وفي هذا تشنيع لفرعون، وتشنيع لمن تبعه، وتشنيع لمنهجه ومسلكه، بأن يمضي بمن اتبعه إلى بئس المصير، وكلمة ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ كلمة معبرة عن دقة العلاقة بينه وبين قومه، في مجاملتهم له، بمطاوعته، والسير خلفه على غير هدى ولا بينة، حتى أدخلهم النار، نعوذ بالله تعالى منها. كما ورد سياق ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ بصيغة الماضي، لتبين تحقق ورودهم التام إلى النار، فلا عدول عن ذلك العذاب يوم القيامة.

ثم وصف الله تعالى منهج فرعون، وطريقته، وما أورد قومه إليه من العذاب بأسوأ الصفات ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ فبئس المكان الذي ورده فرعون، وأورد أتباعه معه إليه. وهي نار جهنم، وكلمة ﴿وَبِئْسَ﴾ غاية الذم التي جمعت جميع أنواعه وأوصافه. قال المفسرون: الورد: الموضع الذي تَرِدْه[١] أي الموضع الذي تطلبه فتأتي إليه، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الوارد إلى الماء، الذي يقول له الورد، إنما يرده ليطفئ حر العطش، ويذهب ظمأه، والنار ضد ذلك[٢] وهذا غاية الذم والتشنيع، وغاية البلاغة البيانية في الوصف البليغ الذي كثرت دلالاته، مع جمال تراكيب كلماته، وقلة ألفاظه. وكذلك غاية الوعظ، من أن يسلك الإنسان مسلك غيره من غير هدى وتبصر، غروراً بوجاهة غيره، فيتبع غيره على غير هدى من الله تعالى، بما يفيد أن ليس كل متقدم ومُنْعَمٌ عليه في الدنيا هو صاحب عقل رشيد، بل قد يكون صاحب سفه، بجودة في علم الدنيا، وغفلته عن الآخرة. كما قال تعالى في سورة الروم ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٠/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٢٣/٢)

ثم يقول الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فقد أعقبهم وأتبعهم الله تعالى في هذه الدنيا ﴿ لَعْنَةً ﴾ أي: طرداً من رحمة الله تعالى، حيث أهلك الله تعالى فرعون ومن كفر معه بالغرق، وكذلك لهم لعنة أخرى يوم القيامة ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فملعونين يوم القيامة، بطردهم من رحمة الله عَزَّ وجل. فَلُعِنُوا لعنة بعد لعنة، ففي الدنيا طرد من رحمة الله تعالى، إذ ماتوا قهراً بالغرق، وفي الآخرة دخولهم جهنم وبئس المصير، فَأُبْعِدُوا وطُرِدُوا عن رحمة الله تعالى مرتين.

ثم يوبخهم الله تعالى بما حصلوا عليه من اللعنة في الدنيا والآخرة ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ فبئس ﴿ ٱلرِّفْدُ ﴾ أي: العطية التي هي اللعنة، وبئس ﴿ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ أي: الْمُعْطَون، أي: ما أُعطُوا من العذاب الذي وفدوا إليه. فبئس العطية اللعنة، وبئس من أُعطيت لهم العطية، الذين هم فرعون وملائه. فكانت جملة في غاية البيان، والبلاغة الدلالية، من قلة الألفاظ، وجمال تراكيب الكلمات، واستوفت أعلى مراتب الذم والتشنيع، فإن ﴿ بِئْسَ ﴾ مستوفية لجميع الذم.

فهذا بيان لأمر فرعون وملائه، وموعظة وتنبيهاً وتحذيراً من المسالك المظلمة، والطرائق الْمُورِدة بأصحابها ومن يتبعهم إلى بئس المصير، وأن على المرء أن يفكر فيما يتبعه، ويقتدي به، فيتحقق من لحق في ذاته ونفسه، وليس بما يراه من علو المكانة والسلطة والجاه، فإنها لا تعني تلازم ذلك مع الحق. فإن من حَذَقَ ونجحَ في علوم الدنيا، لا يعني بالضرورة نجاحه في أمور الآخرة.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ
غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيشير الله تعالى إلى تلك الأنباء من أخبار الأقوام السابقة وقصصهم، لتحصيل الموعظة، والإفادة منها، والاعتبار بها ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ فإن تلك الأنباء المتقدمة من أخبار قصص القرى التي نقصها عليك أيها النبي، فإن منها باقي الأثر، ومنها من لا أثر لها ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ فإن آثارهم تنقسم إلى قسمين: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ ﴾ باقي الأثر، ومنها ﴿وَحَصِيدٞ ﴾ ليس له أثر، كالزرع الذي حصد، فلم يبق منه شيء. قال قتادة: القائم ما كان خاوياً على عروشه، والحصيد ما لا أثر له، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: قائم: خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل، يعني محصود كالزرع إذا حُصِد[1] وفي هذا بيان دقيق في الوصف على وضعها القائم، فيثبت النص الكريم ما عليه الموجود من آثار تلك القرى للعبرة، كمدائن صالح، وحوض ناقة قوم ثمود، وغيرها من الآثار الموجودة لتلك الأمم التي قص الله تعالى أخبارها. وقد عَبَّرت وأفصحت جملة ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ كمال التعريف والوصف من خلال كلمتين ﴿قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ وهذه من غزارة البيان، وبلاغة كلام رَبّ الأنام.

ثم يخبر الله تعالى عن حال تلك الأمم ومسلكهم الذي سلكوه، وما آلت إليه بهم أفكارهم وعقولهم التي رفضت رسالة الله تعالى، وحججه وبراهينه ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ فينفي تبارك وتعالى أن يكون قد ظلمهم في شيء، بل تلطف عليهم بإرسال الرسُل، والحجج، والبراهين البينة الواضحة بأن الذين حملوا رسالة ربهم إليهم هُم رُسُل الله تعالى، وأن الذي جاءهم من الحق هو من عند الله تعالى، وكل ذلك مقرون بالحجج والآيات والبراهين من المعجزات ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، وتمردهم على المرسلين، فأوردوا أنفسهم العذاب ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ فما أغنتهم معبوداتهم من الأصنام والأوثان ﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ فمعبوداتهم التي يدعونها لم تمنع عنهم عذاب الله تعالى عندما حَلَّ بهم ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ فعندما جاءهم أمر الله تعالى بعذابهم لم تمنع عنهم آلهتهم التي يعبدونها شيئاً من ذلك العذاب. فكيف يعبدون عاجزاً مقهوراً؟ فهذا البيان من الله تعالى يستثير جانب التأمل والتفكر في حالهم وتصرفاتهم، وكذلك التأمل في الحقائق، والتأمل أيضاً في الأسلوب البياني لتحرير

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٣/٩)

ذلك، الذي يدل على الإعجاز من كل وجه، ومن ذلك وصف عجز الآلهة، من أنها لم تدفع وترد عنهم ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ أي: من عذاب الله تعالى، فضلاً أن تدفعه كله، عندما حل بهم العذاب ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ ثم يقول تبارك وتعالى عن علاقة آلهتهم بهم ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٍ﴾ فلم تزدهم تلك المعبودات إلا الخسارة الفادحة، والهلاك، وفَوَّتَت عليهم ربح الآخرة من النعيم المقيم، فلم يربحوا منها شيئاً البتة، حتى في الدنيا.

ثم يخبر الله تعالى بمصير من يكفر ويعاند ويكابر، فإن أخذه بالعذاب سهل يسير على الله عَزَّ وجل، فإن العذاب كائن لهم بمثل أهل تلك القرى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ وبمثل هذا الأخذ الشديد الذي أخذ الله تعالى به قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقومه يأخذ الله تعالى جميع أهل القرى الظالمة بشركها وعنادها للحق، وفي هذا تنويه للكافرين في عهده صلى الله عليه وسلم، وإنذار وترهيب وتخويف لهم، وكذلك لمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة. ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ فإن عقوبة الله تعالى للظالمين شديد الوقع، وموجع صعب. وفي هذا بيان تحذيري، وموعظة لمن بعدهم بهذا البيان الرباني.

ثم تتوالى الموعظة من الله تعالى لعباده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فإن ما تم بيانه من أخبار الأمم السابقة، وما كان منهم، وما حل بهم من العذاب، لهو آية ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أي: حجة وبرهان وعبرة وموعظة للذين يخافون عذاب الآخرة، فيتعظون بغيرهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مما يفيد أن الخوف من عذاب الآخرة، يدفع الإنسان لأخذ العبرة، وأما من لم يؤمن بالآخرة، فإنه لا ينتفع بالإخبار عنها. مما يفيد أن هناك صنفان من الناس، صنف يخاف فيحذر فيطيع، وصنف لا يخاف لعدم إيمانه، فلا يحذر ولا يطيع، ولا يتعظ. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق.

ثم يصف الله تعالى عذاب الآخرة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ ففي ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة يجمع الله تعالى الناس أجمعين ليوم الحشر، فيبعثون من قبورهم للحساب والجزاء، فمنهم ما يكون ثواباً لهم، وهم أهل الصلاح، ومنهم ما يكون عقاباً لهم، وهم أهل الكفر. ومن هيبة ورهبة ذلك اليوم قوله تعالى ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ فيشهده الخلائق: البر والفاجر، وأهل السماء والأرض، لا يتخلف عنه منهم أحد. وفي هذا كشف وبيان لما هو قادم، حتى يكون الإنسان على بصيرة وبينة من ربه بأمره، وما سيؤول إليه الأمر

والشأن. وبالتالي لم يظلم الله تعالى من عباده أحداً، بل بين وأوضح لهم، وحذرهم، ورهبهم، ورغبهم، ووعظهم بالعبر وبكل وسيلة، حتى يصبح الإنسان على نفسه بصير.

ثم يخبر الله تعالى عن موعد يوم القيامة ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ فما يؤخر الله تعالى يوم القيامة عنكم إلا لأن الله عَزَّ وجل قد قضى لذلك اليوم أجلاً محدداً، أي: مدة محسوبة، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى. وفي هذا إعلام وبيان وتحذير بما هو قادم، حتى يكون العباد على بينة في أمرهم من ربهم، وهو فضل منه عَزَّ وجل ورحمة.

ثم يخبر الله تعالى بحال الناس في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فإذا قامت الساعة، وجاء موعد يوم القيامة، وجُمع الخلائق، فإن جميعهم في حالة صمت وسكوت، لا يتكلمون إلا من أذن الله تعالى له في الكلام، لهيبة وهول ذلك اليوم، وأن حالهم منقسم إلى قسمين ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فمنهم شقي بما قدم في حياته من الكفر والشرك، وتكذيب الرسل، ومنهم السعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ لما قدم في حياته من الإيمان والطاعة لله تعالى، فكل بحسب عمله.

ثم يبين الله تعالى مآل كل فريق ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ فأما النفوس الشقية بما قدمت ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ فإنهم في النار يحترقون فيها، ولهم أصوات قبيحة من شدة ما يجدون من العذاب. قال الزجاج رحمه الله تعالى: الزفير: شديد الأنين وقبيحه، والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جداً، وهما من أصوات المكروبين[١] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ لابثين فيها أبداً ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي: أبداً لا يخرجون منها، وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً، قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً[٢] ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وهذا استثناء، قد استثناه الله تعالى في أهل التوحيد، أنه يخرجهم من النار إذا شاء، بعد أن أدخلهم النار[٣] وقال السعدي رحمه الله تعالى: خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله تعالى أن لا يكونوا فيها، كما قاله جمهور المفسرين. فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٣/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٨/١٢)
(٣) المرجع السابق (٥٧٩/١٢)

الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها[١] ثم يقرر الله تعالى لعباده كمال مشيئته فيما يريد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ فأكد ذلك بنون التوكيد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ إن ربك يا محمد له كمال الإرادة، ثم زاد التأكيد بالمبالغة في فعل ما يشاء بصيغة المبالغة ﴿ فَعَّالٌ ﴾ وهذا من دقة كلام رب العالمين، حتى أن كل حرف ولفظ في القرآن له دلالته الدقيقة.

ثم يخبر الله تعالى بحال السعداء ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ رُزِقُوا السعادة، لما كان منهم من الطاعة لله تعالى، وانقيادهم لما جاءهم من الحق ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ففي الجنة لابثين فيها أبداً، لا يخرجون منها ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ فعن الضحاك رحمه الله تعالى: هو أيضاً في الذين يخرجون من النار، فيدخلون الجنة، يقول: خالدين في الجنة ما دامت السماوات والأرض ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إلا ما مكثوا في النار حتى أُدخلوا الجنة[٢] ثم وصف الله تبارك وتعالى عطاءه بالديمومة والاستمرارية التي لا تنقطع ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي: عطاء غير منقطع، فلا يُنزع منهم أبداً. وقياساً على ما ذكره السعدي رحمه الله تعالى يكون المعنى: أن أهل الجنة خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله تعالى أن لا يكونوا فيها، وهي المدة التي ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل دخولهم الجنة. وهذا المعنى أقرب لما ورد عن حالة أهل الجنة، وحالة أهل النار. ولا يمنع أن النص الكريم يستوفي بصيغته المعنى السابق، من أن أهل التوحيد يخرجهم الله تعالى من النار إذا شاء، بعد أن أدخلهم النار. اللهم اجعلنا من أهل الجنة ابتداء، والمسلمين أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون، وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون، وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. فَيُذبَح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت. ويا أهل النار، خلود فلا موت) [٣] وفي الحديث كذلك قوله صلى الله عليه وسلم (يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٩١/٢)

(٢) المرجع السابق (٥٨٥/١٢)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٢٥٨/٣) برقم (٤٧٣٠)

من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها....)[١] وهذان الحديثان يؤيدان ما ذهب له أهل التفسير رحمهم الله تعالى.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

بعد وعظ الله تعالى لعباده بأنباء وقصص الأقوام الذين كذبوا الرُّسُل، وما حل بهم من العذاب، وما هو منتظرهم من عذاب الآخرة، والتي أعطت يقيناً بباطل ما كانوا عليه من الشرك والكفر، وما خسروه في الدنيا والآخرة، يوجه الله تعالى عباده بمخاطبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بما يفيد توكيد اليقين بما سلف من حال تلك الأمم، وما حصل لهم، وما وعدهم الله تعالى به، وكذلك ما عليه مشركي العرب، وغيرهم ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ فيا أيها النبي لا تكن في شك من ذلك، وإن كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن المقصود به الناس أجمعين، لأن في توجيه الخطاب بهذا الشأن وبهذا السياق للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه يفيد: تعظيم النهي. فإذا كان هذا النهي موجه للنبي عليه الصلاة والسلام بعدم الشك، الذي يلزم التصديق، وهو الصادق الموقن والْمُزَكَّى من ربه تبارك وتعالى، فإن غيره أحق وألصق بهذا التوجيه، وألزم لهم التصديق واليقين المنافي للشك، فإذا وجه تبارك وتعالى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بالنَّهي عن الشك، فيكون بقية العباد أولى بهذا التوجيه، فإن نَهي الأعلى مقاماً ويقيناً عن ذلك، يترتب عليه أن يكون غيره أولى وألزم به، فلا تشكوا. كما أن في ذلك رفع وعناية لقيمة التصديق واليقين، كون الْمُخَاطَب به الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لديه اليقين الكامل بما أوحى به

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢٣/١) برقم (٢٢)

إليه رَبُّه تبارك وتعالى، ومع ذلك ينهاه، وفيه كذلك رفع وإعزاز لقيمة التصديق من خلال النهي عن ضده، وهو الشك فيه.

فلا تكن في شك من بطلان عبادة هؤلاء المشركين ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ فلا تكن في شك من عبادة هؤلاء المشركين للأصنام، من مشركي مكة وغيرهم، وما في هذا الشرك من عظيم الضلال ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ فعبادة هؤلاء المشركين في مكة وغيرها، هو تأسي وتقليد متوارث بينهم عن آبائهم وأسلافهم من قبلهم، مما يبين أن حجتهم قائمة على التقليد، وهي: كيف نترك ما ألفينا عليه آباؤنا ؟ فليس عندهم حجة على ضلالهم وشركهم إلا حجة الاقتداء والتقليد، مما يدل على خطورة التقليد للغير بغير علم وهدى من الله تعالى. فإن عامل التأسي والاقتداء المتوارث، جعلهم متمسكين بما ألفوا عليه آباءهم. مما يبين أثر التوارث المبني على غير دليل ولا حجة، مما يُعَلِّم الإنسان أن تكون عبادته وفق منهج الله تعالى، وأن عموم أموره تكون على بينة وعلم وهدى واضح صريح، حتى يتحقق له النجاح. كما يفيد هذا أن دين الله تعالى قائم على العلم والحجة والبرهان.

ثم يبين الله تعالى مصيرهم ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ فإن الله تعالى موفيهم ما وعدهم به وافياً غير منقوص. وبدأ البيان بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّا ﴾ ليفيد التعظيم والقوة والقدرة، والاهتمام بتوفيتهم ما يستحقون ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ وإنا موفوهم نصيبهم كاملاً، من غير أن ينقص شيء منه، ثم أكده سبحانه وتعالى بأنه ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ لتحقيق كمال الوفاء.

ومن دقائق البيان ورحابته أن ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ جاء عاماً ليستوفي الأوجه التي يحتملها النص الكريم. فقد نقل أهل التفسير رحمهم الله تعالى تلك الأوجه، فأحدها: ما قدر من خير أو شر. قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وثانيها: نصيبهم من الرزق، قاله أبو العالية، وثالثها: نصيبهم من العذاب، قاله ابن زيد(1) مما يفيد أن الله تعالى سوف يوفيهم نصيبهم غير منقوص بما يكون لهم في الدنيا والآخرة. مما يفيد بأن لا يغتر المسلم بما يراه على بعض الكفار من النعمة، وأن لا يحتج به الإنسان على أنه رِضاً من الله تعالى، فكل سيأخذ نصيبه من الدنيا، ومن كمال الجزاء في الآخرة، أنهم سوف يحصلون على كامل نصيبهم من العذاب.

وهذا التوجيه الكريم مرتبط بما كان قبله من أنباء ما قد سبق عن حال تلك الأمم، فقد جاءتهم الرسل بالبينات والحجج، بما رفع الجهل عنهم، حتى علموا وأيقنوا الحقيقة، ولكن استكبروا، وصدوا عن سبيل الله

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٥٩١-٥٩٢) القرطبي(٩/٦٩) ابن الجوزي (١٢٦)

تعالى، فأخذهم الله تعالى بما كان منهم، جزاءً وفاقاً، فاحذروا أيها الناس أن يصيبكم ما أصاب مشركي تلك الأمم، وما وعدهم الله تعالى به يوم القيامة.

ومن رحمة الله تعالى تعاهده لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يزيده والمؤمنين ثباتاً، ويشد من أزره، ويعزيه على ما يواجه من قومه، فيبين له ما حصل من افتراق أهل الكتب على موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فلقد آتينا موسى التوراة، فاختلف قومه عليه، فصدق به بعضهم، وكذب به آخرون، بما يفيد: وأنت كذلك أيها النبي قد أنزلنا عليك القرآن، فهناك من صدقك، وآمن، وهنك من يكذبك ويعاديك، فلا تحزن مما تواجهه من صدود بعضهم، ومناكفتك في ما أُرْسِلت به من الحق.

ثم يبين الله تعالى سبب عدم تعجيل العذاب لهم، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فلولا أن الله تعالى قضى بفضله ورحمته بأن لا يستعجل على عباده، لفصل وقضى بين المكذبين وبين المؤمنين بعذاب من عنده تبارك وتعالى، فيهلك به القوم المكذبين، وينجي منه المؤمنين. مما يبين عظيم حلم الله تعالى على عباده.

ثم يكشف الله تبارك وتعالى ما في قلوب المكذبين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فإنهم في شك من حقيقته ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: ممترون فيه، وهو تأكيد لشكهم في القرآن الكريم. بما يفيد الصبر عليهم. ومن جميل البيان هو رحابة دلالته، لتستوعب المشركين إن قُصِد به القرآن الكريم، وتستوعب قوم موسى إن قُصد به أهل الكتاب، وكذلك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لقُضِي فيما بين قوم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يعذب المنافقين وينجي المؤمنين، وتأتي بمعنى: لقضي بين قوم موسى، فاستعجل لهم العذاب، واغرقهم من بداية اعتراضهم واختلافهم، ولكن أمهلهم حتى قضي بينهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: أني أخرت أمتك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلت عقاب من كذبك[١] وهذا من الإعجاز البياني الذي أعطت دلالاته المقاصد المتوافقة، من غير تعارض ولا تضاد، فسبحان من أعجز بكلامه عباده أن ينظموا مثله.

ويخبر الله سبحانه وتعالى عباده من خلال توجيه الخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سَيُوفِّي المتمردين الصادين عن دينه ما يستحقون من العذاب ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فإن كل أولئك الذين قصصنا عليك أخبارهم أيها النبي، والذين اختلفوا في الكتاب، والمكذبين بك، ليوفينهم ربك

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٦/٤)

جزاء أعمالهم يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وجملة ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا ﴾ مع جملة ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ تأكيد لتمام وكمال الاستيفاء، بحيث لن يترك ربنا عَزَّ وجل منهم أحداً، ولن يستثني منهم أحداً، ولن يفوت منهم أحدٌ، وأن ذلك مُثْبَتٌ بما يتوافق مع كمال اسمائه وصفاته سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإن الله تعالى بأعمالهم خبير، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية. والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة التي تعطي معنى العالم بما كان وما يكون وما سيكون، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا تحذير لمن كفر، وبشارة لمن آمن، بأن الله تعالى عليم بأعمال عباده، وسيوفي كل بما يستحق.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بالاستمرار على ما أَمَرَ عَزَّ وجل ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ فاستقم يا محمد كما أمرك ربك، أنت ومن تاب معك، فداوموا والتزموا ما أمركم ربكم به في شأن الدين، والدعوة إليه، ولا تلتفت ومن تاب معك إلى ما يكون منهم. مما يفيد بأن لا ينشغل بهم عن مقاصد الدين. مما يعطي المؤمن منهجية العمل والتعامل، بأن لا يُشغله غيره عن ركيزة الأمر وشأنه.

وأما عن كون هذا التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ فهو تعظيم لما أمر الله تعالى به، بأن وجهه عَزَّ وجل إلى نبيه عليه الصلاة والسلام، فيكون من هو دونه أولى بالانتباه له، والأخذ به، والحذر من تجاهله، والحرص على التقيد والالتزام به كما جاء عن الله تعالى. وكذلك فيه تنويه بمنزلته صلى الله عليه وسلم، وعظيم قدره، ومسؤوليته وشأنه عليه الصلاة والسلام، لأنه المتلقي والمنفذ الأول لما يأمر الله تعالى به، وينهى عنه، وفيه كذلك بيان لمعنى الاستقامة ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ بأن الاستقامة إنما تكون بإنفاذ ما أمر الله تعالى به، وكذلك يجتمع معها ويؤازرها عدم التجاوز ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تتجاوزا ما حدَّه الله تعالى لكم من أمره ونهيه، ومنها أن تتعاملوا مع غيركم وفق ما أمر الله تعالى به، ولا تتجاوزا ما حده الله تعالى لكم، فتدخلوا في صفة الطاغين ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فإن ربكم تبارك وتعالى ذو علم بما تعملون من أعمال، فيراكم ويرى أعمالكم، فهو عالم بخفايا الأمور، فلا يخفى عليه منها شيء. ليتحقق لكم بأعمالكم الجزاء. وفي هذا أمر بتقوى الله سبحانه وتعالى. فإذا استشعر المؤمن أن الله تعالى يبصره، ويسمعه، ويعلم بما يكون منه، فإنه يراقب الله تعالى في شؤونه كلها، فيخاف من المعصية، ويجتهد في الطاعة، فتتحقق بذلك في نفسه تقوى الله تعالى. وهذا يبني في المسلم مراقبة الله تعالى في جميع جوانب حياته، ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى، وفي بيعه وشرائه وتجارته، وفي أخلاقه وتعامله مع غيره، وفي ماله وحلاله، وفي كل خطوة ولفظة.

ومن دقائق البيان وجمال مغزاه أن وصف الله تعالى المؤمنين بصفة التوبة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ لأن التوبة تتضمن ركائز الاستقامة المأمورين بها ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾ فالتوبة متضمنة للإقلاع عَمَّا كانوا عليه من الشرك، والندم على ذلك، والعزيمة على الرشد والاستقامة كما أمر الله تعالى، وفي هذا تلازم بين الاستقامة، وصفة التوبة التي وصفهم الله تعالى بها. فكان اختيارها، وتناسقها وتلاصقها مع الاستقامة مثار إعجاز بياني عظيم. فسبحان الله العظيم.

وجملة ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ استجمعت المنهج المتكامل لتحقيق الاستقامة، فإنها متضمنة للأداء وفق ما أمر الله تعالى، من غير اجتهاد يحقق التجاوز ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ لأنه يتحقق بالتجاوز النفرة عن الدين، لما في دلالة الطغيان من الجرأة مع التعدي، ومجاوزة الحدود لمنهج الله تعالى، مما يفيد أن التجاوز لمنهج الله تعالى في العبادة، وفي الدعوة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يحقق النجاح، بل يحقق نفرة النفس. مما يوجب ذلك على المؤمن أن يعمل وفق قوله تعالى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ فالطغيان يستجمع جميع المفاسد التي تحقق النفرة من الدين، فأمسكوا عن الحماس الذي يتجاوز به المؤمن حدود منهج الله تعالى. ومن دقائق البيان الرباني أن جملة ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ تجمع معها عدم التقصير لأن ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ تستلزم الامتثال من غير تقصير ولا تجاوز، ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ تأكيد منع التجاوز، وبيان أنه يتحقق بالطغيان التجاوز، سواء على الدين، أو على النفس، أو على الغير.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بضابط العلاقة بين المؤمنين والكافرين ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بالنهي عن الميل للذين ظالموا ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي: لا تميلوا وترضوا بأعمال المشركين، وتداهنوهم، فيشعرون برضاكم عن شركهم، وما هم عليه من الضلال، وقد سماهم الله تبارك وتعالى بالظالمين ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ليفيد أن من معاني الظلم الشرك، وأن هؤلاء ظلموا علاقتهم بربهم من خلال شركهم، وظلموا أنفسهم بخسارتها للآخرة، وظلموا غيرهم بنشرهم الشرك، وترغيبهم لغيرهم فيه، فاستجمعوا الظلم من كل وجه، فإن حصل ركون منكم إليهم فإنه يحصل لكم العذاب ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فيصيبكم عذاب النار،

مما يفيد التهويل والتحذير الشديد من الركون إلى الذين ظلموا. ويتأكد قوة التحذير بالمزيد من البيان والتأكيد، فيقول الله تعالى ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ فليس لكم أعوان يمنعونكم من عذاب الله تعالى ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ وبالتالي لا تستطيعوا أن تفلتوا من النار، وتنتصرون عليها، بما يفيد تحقق العذاب لكم إن ركنتم للذين ظلموا. وكذلك تأتي دلالة ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي: لا ينصركم الله تعالى على عدوكم، بل يخذلك، فيتسلط عليكم عدوكم. وهذا يؤكد مخاطر وخطورة الركون للذين ظلموا في الدنيا بأن عاقبتها الخذلان، وفي الآخرة بالعذاب. مما يوضح أن النهي عن الركون إليهم في مسائل الدين، والتعاطف معهم على هذا الوجه، وليس المقصود منه التعامل العام كالبيع والشراء.

وبعد النهي يأتي البيان بما يجب العمل به ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ فهذا أمر بإقامة الصلاة ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامتها أي: إتمامها على الوجه الذي يجب، ثم حدد تبارك وتعالى الزمن ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ وطرفي النهار ما بين الفجر إلى غروب الشمس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الصبح والمغرب، وقال غيرهم: هي الصبح والعصر، والذي رجحه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنها صلاة المغرب[١] أي صلاة الصبح وصلاة المغرب ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني: صلاة العشاء، وقيل: يعني المغرب والعشاء[٢] وإذا قلنا أن صلاة طرفي النهار هي صلاة الفجر، وصلاة المغرب، فيكون صلاة الزلفى من الليل هي صلاة العشاء. ومن فوائد البيان أن كلمة الزُلف: الساعات، واحدها: زُلْفة، أي: ساعة، ومنزلة، وقربة، ومنه سُميت المزدلفة. ويقال أزلفني كذا عندك، أي أدناني، والمزالف: المنازل، والدَّرَج[٣]

ثم يبين الله تعالى فضل الصلوات في إزالة السيئات ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: أن الصلوات الخمس، يمحوا الله تعالى بها السيئات، قال المفسرون: هي الصغائر من الذنوب[٤] وفي هذا لطف وكرم من الله تعالى أن يجعل الصلوات مكفرات للصغائر من الذنوب، كما يبين أهمية الصلوات المفروضة،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٦٠٣-٦٠٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٧٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/١٢٩)

(٤) المرجع السابق (٤/١٣٠)

والمحافظة عليها ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فذلك الذي تقدم من لزوم الاستقامة، وعدم مجاوزة الحد بالطغيان، وعدم الركون للذين ظلموا، وإقام الصلاة، وما تذهب به الصلاة من محو الذنوب ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ موعظة لمن يتعظ. فجميع ذلك تذكرة وعظة للذين يَذَّكَّرون ويحبون الحق، ويطلبون الخير، ويرجون ثواب الله تعالى، ويخافون عقابه، ولا يعرضون عن الحق، فيطلبون الشر، مما يبين أهمية الذكرى، وأهمية التذكير، وحاجة المسلم والناس إليه أجمعين. ومن بلاغة السياق أن اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ جمع جميع ما تقدم قبله من الأمر بالخير والنهي عن الشر وأسبابه.

ثم يقدم الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولجميع المؤمنين منهجاً عملياً ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام، لما للصبر من عواقب الفوز والنجاح والنصر من الله تعالى، وجاء الصبر عاماً، ليشمل الصبر على الطاعة، ومشاق الدعوة إلى الله تعالى، ويشمل الصبر عن المعاصي، وعلى غيرها مما يلزمه الصبر، وهذا من بلاغة البيان في توظيف المأمور به، بما يشمل جميع أجزائه وأنواعه ومفرداته، إضافة إلى عظيم العاقبة والثواب من الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مما يبين أن الصبر من صفات المحسنين، فإن الله تعالى يُثبت أجر المحسن، فلا يفوت عليهم منه شيء، صغيره وكبيره، وفي هذا ترغيب وتشجيع واستدفاع للنفس نحو الخير، ابتغاء ما عند الله تعالى من الأجر والمثوبة العظيمة. وفي ذلك بيان لكرم الله تعالى وعلمه، ودقة الإحصاء والإثبات، وكرمه وجوده بأن جعل الأجر منه من دون تحديد، وذلك لكرمه وسعة فضله، وجزيل عطائه.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يستأنف البيان القرآني الكريم العودة إلى أنباء أحوال الأمم السابقة، لبيان المزيد عن سبب استئصال الظالمين منهم ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ فبدأ البيان الكريم بسؤال تقريري يقرر فيه، أنه ما كان فيهم مَنْ ينهى عن الفساد في الأرض، إلا القليل الذين أنجيناهم مع رُسُلِهم من المؤمنين. ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ من الأمم التي كانت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: عاشت قبل زمانكم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أصحاب دين، وفهم، وطاعة، وعقل وفضل، يعتبرون بما جاءهم عن الله تعالى، فيقومون بالأمر بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فينهون أهل المعاصي عن معاصيهم، وأهل الكفر والشرك عن كفرهم وشركهم في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ فلم يكن منهم إلا قليلاً، قد أنجيناهم من العذاب مع الرُّسُل، فقد كان هؤلاء القليل يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله تعالى مع أنبيائهم من العذاب. أي: فإن الذين أنجاهم الله تعالى هم القليل، الذين كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، وأما الكثير فلم يكونوا من المعتبرين، بل كانوا ظالمين، فحق عليهم العذاب. مما يبين ويفيد أنه على كثرة تعاقب الأمم إلا أن أهل الإيمان هم القيل عدداً، وأن أكثر الناس هم أهل الكفر عدداً.

ثم أوضح الله تبارك وتعالى وبين منهج هؤلاء الظالمين الذي أوداهم منهجهم في الكفر ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ فقد اتبع الذين كفروا ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ من لذائذ الدنيا التي انغمسوا فيها، فأبطرتهم النعمة، وتركوا الحق ولم يقبلوه، نتيجة انشغالهم بما أُترفوا فيه من نعائم الدنيا وزينتها وزخرفها عن مطالب الآخرة، فأودا بهم مسلكهم هذا إلى الاتصاف بالإجرام ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ فسماهم الله تعالى بالمجرمين لكفرهم. فكل من يضاد أمره سبحانه وتعالى فقد ارتكب جرماً عظيماً، فاستحق به صفة الإجرام كاملة. فسماهم بالمجرمين، لعظيم جرمهم، وعظيم ما اكتسبوا به من الإثم، وعظيم عذابه لهم. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة. وهذا يفيد أن الانشغال بالترف، والانقطاع له عن الحق، يُدخل صاحبه في القوم المجرمين، وعدم الإذعان للحق، بل ويصد الحق ويحاربه، لأنه لا يريد أن ينشغل بغير ملذات الدنيا وزخرفها. مما يفيد أهمية اليقظة من ترف الدنيا وزينتها، بأن لا يجعلها المسلم محل ركونه، فتنحرف به عن طاعة الله تعالى، وعن متطلبات الآخرة، فنسأل الله تعالى التوفيق والسلامة والعافية.

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فلا يمكن أن يحصل الظلم من الله ربكم سبحانه وتعالى لعباده، فينفي تبارك وتعالى أن يحصل منه عَزَّ وجل هلاكاً لأهل القرى ظلماً وتعدياً، وهم على صلاح من أمرهم وطاعتهم له جَلَّ جلاله. فلا صح ولا استقام من الله تعالى أن يكون ذلك منه أبداً. وهذا بيان وتأكيد لعدل الله تعالى، وحاشاه سبحانه وتعالى وتنزه أن يكون منه ظلم لأحد وهو الحليم الغفور الرحيم، مما يفيد تأكيد أن هلاكهم كان بسبب ظلمهم، لارتكابهم الكفر، ومعاداتهم الرُّسُل. وكذلك تستوعب دلالة الآية الكريمة أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بشركهم، وأهلها على صلاح فيما بينهم، فلا يحصل بينهم التظالم، بل يتعاطون الحق بينهم، وإن كانوا على كفر، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وقد ذكر الدلالتين ابن جرير وغيره، رحمهم الله تعالى[١] فيكون المعنى كما قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا تظالموا[٢] وهذا يعطي دلالة بأن الله تعالى قد يمهل الكفار طالما أنهم يقيمون العدل والحق بينهم، أما إذا جمعوا بين الكفر والتظالم فيما بينهم فإن الله تعالى مهلكهم.

وبعد بيانه سبحانه وتعالى فيما سبق عن عدله، وعدم ظلمه لمن هلك من أهل القرى، وإنما هو بسبب ظلمهم لأنفسهم، باختيار الشرك والكفر على ما جاءهم من الآيات والبينات، يخبر الله تعالى بأن خروج أولئك وغيرهم عن الإيمان وتصديق الرسُل ليس خارجاً عن مشيئته عَزَّ وجل، بل إن إرادته ماضية، فلو شاء لألزمهم بما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فيُثبت الله تبارك وتعالى كمال مشيئته، بأن اختلاف الناس إلى مؤمن وكافر، ليس هو من باب الخروج عن قدرته عَزَّ وجل ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فلو شاء عَزَّ وجل لجعلهم على هدى ودين واحد، وهو الإسلام، ولكن قضت حكمته حصول الاختلاف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل[٣] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فمنهم أهل الحق، ومنهم أهل الباطل، فاقتضت حكمته أن يجعل لهم إرادة يحاسبون وفق اختيارهم ومسالكهم، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة المدثر ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٦٣١-٦٣٢)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٤)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٤)

﴿٣٧ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ بل إن من رحمة الله تعالى أنه خلق الناس حنفاء على الفطرة، كما قال صلى الله عليه وسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)[١] وقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فحصل الاختلاف بينهم في الدين، بحسب اهتداء كل واحد منهم، حتى يكون الجزاء عدلاً، فلكل امرئ ما اكتسب من الخير ومن الشر. فإن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذا ازالة ما قد يتوهم الإنسان من فهم خاطئ عن إرادة الله تعالى، مما يبين أهمية إزالة الجهل، وما قد يتوهم ويظن الإنسان في أمر من الأمور. كما يبين هذا أهمية معالجة الاختلاف في داخل الأمة.

ثم استثنى من هذا الاختلاف أهل الحق ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ وهم أهل الحق، الذين آمنوا وصدقوا رُسُلَه، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله تعالى، وما جاءهم عن الله عَزَّ وجل، فجعلهم على الإسلام ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾ فقد خلقهم بما وهبهم من الإرادة والاختيار، فهناك أهل الشقاء، وهناك أهل السعادة ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ فثبتت وتمت إرادة الله تعالى كما قررها وقضاها عَزَّ وجل ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ بأن تمتلي جهنم بمن يستحقها من طائفة الجن، وطائفة الإنس. ففي علم الله تعالى الأزلي أنه بناء على هذا الاختلاف في أعمال الناس، وما سيكون من كثرة أهل الكفر، وأهل المعاصي، فإنه سوف يملأ النار بهم سبحانه وتعالى.

وأعطت جملة ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أن الله تعالى رحيم بمن أراد الخير وسعى له، فإنه عَزَّ وجل يوفقه له، ويهديه إليه، وييسره له، ويعصمه من الاختلاف على الحق. وأما من أراد الكفر والشرك، وتقديم الهوى على الحق، واتباع ما أُترف فيه، فقد أبعد نفسه عن رحمة الله تعالى، وقد قال تعالى في سورة الشورى ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ ﴾ فهناك اجتباء واصطفاء من الله تعالى لمن يشاء من عباده، وهناك من ينيب من العباد، فيقبل الحق، فيهديه الله تعالى ويوفقه للحق، محبة وعملاً، فهنا تظهر معنى كمال مشيئته، والعلاقة بين هداية الله تعالى ورغبة العبد. فإذا رغب العبد في الطاعة هداه الله تعالى ووفقه وسدده.

ومن دقائق البيان شمولية الاختلاف في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ لتشمل وتستوعب الاختلاف في الإرادة، وفي الرزق، وفي الأهواء، والدين، وفي الصحة، والعلم، ومقداره، فشمل

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤١٧/١) برقم (١٣٥٩)

الاختلاف جميع أنواع التباين الحاصل بين الناس. وهذا من سنن الله تعالى في عباده، فمن أدركها عَرَف كيف يتعامل مع غيره بالحكمة المتوافقة مع هذا الاختلاف.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله تعالى إلى التعريف بهدف عظيم من أهداف الإخبار ولإنباء عما قص سبحانه وتعالى من قصص ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكل ذلك نقصه عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من أنباء الذين كانوا قبلك من الرُّسُل ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ما يسكن به قلبك فيطمئن ويثبت، وذلك للعلاقة بين ثبات القلب والأدلة والبراهين في تثبيته وطمأنينته.

ومن دقة السياق أن أضاف سبحانه وتعالى شأن تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم إليه ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ فهي وسائل وأسباب، تتحصل لك بعناية من الله تعالى أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، فإن من أهداف عرضها عليك هو ما نثبت به فؤادك. فالأسباب لا تعمل إلا بتوفيق الله تعالى، فإن ما كان من سيرة أقوام الرسل، من محاربتهم للحق وتصديهم له، وما يلاقيه الأنبياء من مشاق الدعوة، وما يواجهون من عناد أقوامهم لدليل على أن ذلك ليس خاص بك أيها الرسول فيما تجده من قومك، فقد سبقك الكثير من الأنبياء. فلا تجزع من تكذيبهم لك، وردودهم القاسية عليك، ولا يضيق صدرك بهم. وهذا يبين أهمية الحجج والبراهين والتجارب في تثبيت القلوب، من خلال زيادة خبراتها بغيرها، وبأنباء الأحداث التي تمضي.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وجاءك فيما تناولته هذه السورة الحق، مع ما جاءك في سائر سور القرآن، وتخصيص السورة ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ باعتبار السياق والحديث فيها وعنها، ولأنه جاء فيها من تفصيل إهلاك الأمم ومآلهم ما خصها الله تعالى بذلك. وكذلك جاءك في هذه السورة موعظة ﴿وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يتعظ بها من يسمع هذه السورة أو يتلوها. لما فيها من كثرة

البيان عما نزل بالأمم، فتهتدي بها قلوبهم، مما يبين أهمية قصص الأحداث عند الموعظة، فإن لها أثرها في النفوس. وأن النفوس تتفاعل بالمواعظ وتتأثر.

وكذلك من المقاصد أنها ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي: وتذكرة تبين وتُذكِّر المؤمنين بالله تعالى، فتربطهم بالطاعة والاستقامة، والتثبيت، والبعد عما يُسخط الله تعالى، حتى لا يكونوا في غفلة عن طاعة الله تعالى. مما يبين أثر قراءة القرآن الكريم وسماعه في التذكير للمؤمنين على دوام الطاعة، والبعد عن الغفلة التي تأخذ الإنسان إلى الانغماس في زينة الحياة الدنيا.

ثم يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله للكفار الذين لا يتعظون بما جاءهم من الحق ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ قل يا أيها النبي للكفار الذين لا يصدقون ما جئتهم به من الحق ﴿ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ اعملوا ما أنتم عاملون، واستمروا على هيئتكم من الشرك والكفر والعناد والتكذيب، فإننا في المقابل عاملون بما أمر الله تعالى به، فستعلمون عاقبة أمركم، وسنرى عاقبة أمرنا. بما يفيد الإنذار والوعيد والتهديد. ثم يزداد التأكيد ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ وانتظروا ما تُوعِدُون به أنفسكم، وما وعدكم به الشيطان، وما وعد الله تعالى به من العذاب لمن عصاه، فإنا منتظرون ما وعدنا الله تعالى به، بأن ينصرنا عليكم، ويخزيكم ويذلك. ومن فوائد هذا البيان العظيم هو الاختصار وعدم الإسهاب في الكلام، فلم يذكر في النص الكريم محتوى الانتظار، لأن كل طرف متوقع الأمر الذي يتوقعه، فالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ينتظرون عن علم لحقيقة الانتظار من نصرهم، وهزيمة عدوهم، والكفار ينتظرون ما يتوهمون مما لا يغنيهم عن الحقيقة بشيء، كزوال هذا الدين وأهله، وما سيكون لهم من عقوبة الله تعالى.

ويختم الله تعالى السورة الكريمة ببيان وتأكيد عظيم قدرته المتمثلة في عظيم ملكه عَزَّ وجل، وعظيم تدبيره لملكه سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإن لله تعالى ما غاب عن خلقه مما في السماوات والأرض، فلم يطلع عليه أحد من الخلق. وقد جاء البيان بما هو أعجز للخلق، والأكثر إعجازاً لعلمهم، وهو ما غاب عنهم. فكيف بعلم الله تعالى فيما يعرفونه ويطلعون عليه، وفي هذا شد الانتباه للتأمل في عظيم خلق الله تعالى، وعظمة علمه، وكمال إحاطته وسعة ملكوته سبحانه وتعالى، ومن ذلك ما غاب عن الخلق من شأن موعد الساعة، وموعد موت كل أحد، وماذا سيكسب في غده، والجنة والنار، والصراط، ومن أقرب ما يغيب عن الإنسان في الأرض، ما يكون من حديث النفس ممن يجلس معهم العبد في مجلسه أو مجالسهم، وما ينوي به غيره من خير أو شر، وهم في مجلس واحد، وكل منهم لا يعلم بما في خلجات مُجَالِسِه. وأيضاً ما هو متعلق بمراد ونية من يحدثه فيما ينطق به، فمع قربه المكاني إلا أنه لا يعلم بما غاب عنه تلك اللحظة ممن

يجالسه، وهو أقرب ما يكون إليه، ولكن الله تعالى يحيط بذلك علماً، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ويعلم كذلك بما يكون من العبد، وبما سيكون منه، قبل أن يحدث ذلك منه، فَيُقاس على هذا غيره مما يغيب على الإنسان في السماوات والأرض من المخاليق والتدبير لها، ليعرف سعة علم الله تعالى، وعظيم خلقه، وأن الأمر كله لله تعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى بمرجع جميع أمور المخاليق له جَلَّ جلاله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فإن مرجع كل ذلك له سبحانه وتعالى، من الإنشاء والتدبير والتصرف، والموت والنشور، وعودت الخلائق إليه يوم القيامة، فلا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء. فمعاد كل عامل وعمله إليه، فيجازيهم جميعاً بأعمالهم. فلذلك يلزم كل أحد أن يمتثل لربه جَلَّ في علاه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فاعبد ربك أيها النبي، امتثالاً وإخلاصاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ واعتمد عليه، وفوض أمرك إليه، وثق به، فإنه كاف من توكل عليه، والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه يشمل المؤمنين، لأنهم تبع له عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإن الله تعالى متنزه عن الغفلة والنسيان، فليس بغافل عما تعملون جميعاً. وفي هذا وعد ووعيد، فهو وعد للمؤمنين بما يستحقون من الأجر العظيم، ووعيد للكافرين بما يستحقون من العذاب الأليم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة هود. والصلاة والسلام على نبينا محمد.